ذكرى الروائح

أحمد فكري

ذكرى الروائح / رواية

أحمد فكري

الطبعة الأولى ، ٢٠٠٩

OKTOB NET

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧

موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

تصحيح لغوي :

عزيزة أبو الأنوار

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٣٠٣٣

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٦٢٩٧- ٠٢٠- ٣

ذكرى الروائح

رواية

أحمد فكري

الطبعة الأولى

٢٠٠٩

اكتب
OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع

مقدمة

قليلة هي اللحظات التي نشعر فيها بذكرى الروائح..

تزورنا لتسعدنا وتذكرنا بلحظات عشناها بجميع حواسنا حتى أننا احتفظنا برائحة الذكرى أو ذكرى الرائحة..

وهذا هو محور قصتنا تلك.. ذكرى الروائح أو روائح الذكريات.

هي قصة رجل يرقد في مستشفى لندن كلينك بعد أن يكتشف الأطباء إصابته بسرطان الدم، وينتظر إجراء عملية خطيرة في غضون أيام؛ وأثناء ذلك يحاول أن يسترجع ذكرياته ولحظاته ومشاعره للتغلب على الوقت والوحدة.. ولذلك قرر أن يصادق مرضه وأن يحكي له عن أيامه التي كانت.. ويتعجب من وجود روائح للذكريات أو ذكريات للروائح.. يحاول أن يستدعيها كل ليلة لتساعده وتخفف عليه وطأة المرض والوحدة والخوف.

لقد كان من قبل كاتباً مشهوراً، ولكنه أصبح الآن مجرد إنساناً يحاول أن ينتصر على خوفه وفي نفس الوقت يحاول هزيمة وحدته والتغلب على كم المشاعر السلبية المندفع على رأسه منذ لحظة دخوله المستشفى..

والآن هيا بنا لنتذكر ونشعر معه ب {ذكرى الروائح}.

أحمد فكري..

الأربعاء ٢٠٠٨/٨/٦.

إهداء

لا أعرف إن كان هذا العمل يليق بالإهداء أم لا.. ولكنني فقط أهديه إلى روح صديقي وأخي { أحمد حجاب }.. الذي رحل مبكراً جداً وأنا أكتب هذا العمل.. رحل دون أن يخبر أحداً أو يعلم أحداً.. رحل وترك لنا حزناً كبيراً وجرحاً عميقاً وذكرى طيبة.. رحل بجسده فقط لأن الرحيل مكتوب على كل حي..

ولكنه ظل معنا بذكراه الطيبة وكلماته الرقيقة ووجهه البريء.. فإن كان الرحيل مكتوباً على الجميع، إلا أن الخلود لا يستحقه الجميع.. ولكن حجاب يستحق ما هو أكثر من الخلود. فإلى أن نلتقي يا أخي لك مني ألف تحية ودمعة وسلام.. وتأكد أنك في القلب دائماً.

أخوك: أحمد فكري ٢٠٠٨/١٢/٤..

الإثنين ١٠ ذي الحجة ١٤٢٩.

{١}

هذا هو يومي الأول في ذلك المستشفى..

أنتظر خطوات الطبيب كي يأتيني كل ساعة ليغير ذلك المحلول المعلق في ذراعي اليسرى، ثم يذهب إلى طرف السرير الأبيض الأنيق الذي أرقد عليه ليرى ملاحظات زملائه عن الضغط والنبض والسكر..

أرى تلك الابتسامة المصطنعة المرسومة على وجهه الإنجليزي العتيق وهو ينطق بكلمات الأطباء المعتادة الركيكة؛ *"لا عال، عال.. لقد تحسنت كثيراً"*.

عجيب أمر هؤلاء الأطباء..

حتى في لندن هم هم..

يعتقدون أن المريض مغفل لا يعرف حقيقة مرضه، أو أنه لا يشعر بتدهور حالته وشراسة آلامه.. أم أنهم يعتقدون بأنه سيكذّب أوجاع جسده ويصدق زيف كلماتهم المبتسمة؟!!

كل هذا لا يهمني كثيراً، وأعتقد أنه أيضاً لا يهم صديقي ورفيقي هنا "سرطان الدم"!!

فهو يعرف حقيقته كما أعرفها أنا..

ونحن نحب تلك الصراحة التي بيننا..

فهو صارحني عندما جاء وقال لي: إنني محطة وصولك الأخيرة..

أنا أيضاً صارحته عندما أخبرته عن رفضي النزول إليها بسهولة..

ومنذ تلك اللحظة ونحن نصارح بعضنا البعض..

ورغم المنافسة الشديدة التي بيننا لكسب تلك المعركة إلا أننا أصدقاء صرحاء ومنافسون شرفاء.

وأهم أسباب توطد تلك الصداقة اكتشاف عدو مشترك يحاول قتلنا وهزيمتنا، ولا سبيل أمامنا إلا مواجهته والتغلب عليه..

"الوحدة"..

ذلك العدو اللدود لي طوال الخمسين عاماً الماضية..

الوحدة يا عزيزي قاتلة الرجال، والتي انتهزت الفرصة للانقضاض عليَّ ها هنا..

ولكنها وجدتني أنا وأنت يا صديقي العزيز على أهبة الاستعداد لمواجهتها والتغلب عليها.. وذلك بتعرف بعضنا على بعض أكثر والتحدث عن كل تفاصيلي وذكرياتي.. فبالرغم

من مضي بضعة أشهر على تلاقينا إلا أنني اكتشفت أنه – للأسف– لم تتح لنا فرصة التعارف والحديث قبل الآن!!

حسناً يا صديقي لا عليك وليكن الآن هو بداية التعارف..

"جمال يوسف العجمي" اسم لازمني طوال خمسين عاماً..

وأنا وليد، وطفل، وصبي، حتى أوصلني إلى محطة الشباب التي بدأت فيها رحلتي الأدبية منذ المرحلة الثانوية..

شاب كاتب أو كاتب شاب لا يهم الترتيب، فقط يهم الفعل.

كتبت القصة القصيرة والشعر والرواية..

عشقت المسرح كتابةً وتمثيلاً وإخراجاً، وكان أول ما كتبت في المرحلة الجامعية..

كانت أجمل لحظاتي عندما أجلس لمكتبي وقلمي وأوراقي، أستحضر ملكة الإلهام..

أكتب وأقرأ وأمثل كل ما أكتبه لقياس مدى صدق انفعالات الشخوص وواقعية الأحداث..

وبدأت طريقي نحو الشهرة بعد حرب شرسة خضتها لنشر أعمالي بعد تخرجي من كلية التجارة عام ٧٩ وأنا الأول على دفعتي.. كلية التجارة التي دخلتها عاشقاً الأدب، مُصراً على

عدم دخول كلية الآداب حتى أبقى طيلة عمري هاوياً عاشقاً للأدب غير محترف..

فأنا أكتب عندما أريد..

وأنشر عندما أريد -أو بمعنى أدق عندما أجد ناشراً يريد-..

ومع ذلك ساعدني حبي للقراءة على التعمق في مجال الرواية والمسرح والشعر أكثر من العديد من المتخصصين.

ومنذ نهاية عام ٧٩ بدأت مرحلة جديدة مع "جمال يوسف العجمي" الكاتب الشاعر والمناضل العاشق النبيل..

أتعبته معي وأتعبني..

قسوت عليه كثيراً وأجهدته كثيراً وأدخلته في مئات المعارك الأدبية والسياسية والمادية والمعنوية والنفسية..

شاب رفض حياة الشباب..

رفض سطحية وتفاهة معظم أقرانه وقرر شق طريقه وسط المستحيل..

لم أكن أحلم بالكثير..

فقط الحب والحرية هما كل ما تمنيت..

الحب..

الحب..

كلمة لازمتني منذ الطفولة..

قد أدعي أنني أكثر المحبين عشقاً للحب ذاته..

حياتي هي الحب وبغيره لا حياة لي..

منذ الطفولة أحب..

دعاء كانت حب الصف الأول والثاني والثالث الابتدائي، تلتها رشا حتى نهاية المرحلة الابتدائية.. بدأت قصتي بسارة أطول قصة حب عشتها وأول حب حقيقي ببداية المرحلة الإعدادية وانتهت بنهاية الفرقة الأولى من الكلية..

تخللت تلك القصة العديد من الحبيبات والجميلات..

فبمجيء المرحلة الثانوية جاءت رباب أجمل وأرق من رأيت..

وفي الجامعة تعددت القصص والحكايات..

المظاهرات كانت مكان اللقاء الأول..

والكافيتريا النيلية كانت مكان باقي اللقاءات.

فأنا كأي فنان مبدع يعشق الجمال والرقة والحنان، ويبحث عنهم طوال الوقت..

خاصة أوقات الأزمات والمخاطر، تشتد الرغبة في التمسك بالحياة..

والمرأة هي الحياة.

عشت حياتي كلها أحب وأعشق..

أفرح وأحزن..

أرتاح بالحب وأشقى بسببه..

أحببت الكثيرات، وأحبني الكثيرات..

تَركتُ.. وتُركتُ، وتُرِكتُ أكثر..

وفي كل مرة تتكرر نفس المأساة والحزن والألم، الذين ما يلبثوا أن يتحولوا إلى رواية جميلة أو قصيدة رائعة..

وحب من بعد حب من بعد حب..

العمر يمضي والسنين تمر..

تزداد الشهرة والمعجبات ،والقصص تزيد..

إلى أن اكتشفت أنني نسيت وسط كل هذا أن أحتفظ بأي من هذه القصص لتحويل مسارها ناحية الزواج..

والآن ها أنا أجلس معك يا صديقي نصارع الوقت ونحاول هزيمته والتغلب عليه.

والآن أحن لأيامي الخوالِ..

وذكرياتي..

وقصصي وحكاياتي..

أحن إلى روائح ذكريات وأبحث عنها كي تخرجني من روائح الأدوية والمحاليل والمطهرات..

أبحث عن تلك الروائح التي مازالت تحمل ذكرياتي ولحظاتي.

وأول تلك الروائح كانت رائحة المطر..

كم عشقت المطر ورائحته، التي كانت دائماً تذكرني برائحة البداية..

بداية كل شيء تحمل رائحة المطر..

فرائحة المطر هي التي بدأت الكون بعد طوفان سيدنا نوح الذي طهّر الأرض كلها من كل المخلوقات..

لتبدأ الحياة من جديد بسيدنا نوح وما معه من مخلوقات..

إذاً كان المطر بداية النهاية أونهاية البداية، لتبدأ مع رائحته الحياة من جديد. وأنا هنا في مدينة الضباب التي عشقتها أول ما عشقتها من أجل تلك الرائحة..

خمسة وعشرون عاماً لي مع هذه الرائحة في تلك المدينة المضببة.. ورغم أنني أملك أكثر من عشرين جواز سفر امتلأت كلها بتأشيرات المدن والبلاد الكثيرة التي زرتها وعشت بها.. لم أعشق مدينة مثلما عشقت لندن، حتى أنني اخترت أن تكون النهاية في مستشفاها العريق *"لندن كلينك"* كي أموت وسط تلك الرائحة التي عشقتها.. وإن لم أمت تكن بدايتي مع رائحة البداية.. رائحة المطر..

{٢}

ثاني أيامي بدء صبيحة هذا اليوم..

كما تعرف ياصديقي أجروا لي التحاليل والآشعة للاطمئنان على مدى انتشارك وتفوقك، ومدى مقاومتي..

تحدث معي "دكتور شريف" -الطبيب المصري الوحيد هنا-، عن أخبار مصر ومدى حزن الشعب المصري والعربي بعدما ذاع خبر مرضي..

ربما كان ما قاله قد حدث بالفعل، ولكنني أعتقد أنه يبالغ قليلاً ظناً منه أن هذا سيفرحني ويقويني على مواجهتك..

أتعرف أنني اشتقت إلى مصر؟؟

عشرة سنوات الآن مرت دون أن أرى نيلها وألمس نور قمرها ودفء شمسها.. عشرة سنوات اخترت البعد فيهم عن وطني وأمي وأهلي.. عشرة سنوات و لم أشتق لها إلا الآن!!

أتعرف مصر؟!!

من المؤكد تعرفها، فأنت صديق عدد ليس قليلاً من أبنائها الفقراء.. آلاف ومئات الآلاف من أصدقائك هناك، لا يملكون القدرة على مقاومتك أو علاجك..

لماذا تصيب الفقراء؟!!

استغفر الله العظيم..

هي مشيئة الله في ابتلاء الناس..

فكما أن المرض ابتلاء ،الصحة أيضاً.

لا..

لا تغضب مني يا صديقي، ولا تهاجمني..

أنا لم أقصد إساءة ولكنها حقيقة تؤلمني.

دعنا من هذا كله الآن ودعني أحدثك عن النيل ورائحته..

تزورني الآن تلك الرائحة لتزيل عني آثار غضبك المؤلمة..

ربما لأننا بالليل أتتني تلك الرائحة!!

فالنيل لا يصيرُ نيلاً إلا في الليل..

سحره وجماله ورائحته..

كل هذا لا يجتمع ولا يكتمل سوى بالليل، وبالليل فقط يجتمع الأحبة..

نور القمر يعانق صفحته وكلماتهم تضيء ظلمته..

كان سهري كله في النيل وعلى جانبيه..

منذ الثانوية وأنا أسهر هناك مع جمال يوسف العجمي.. رغم أنه مكان العشاق والمحبين -وأنا منهم- إلا أنني لم أسهر مع أحد هناك.. فقط أنا وهو وحسب.

أما نهاره فكان موعدي الدائم مع أحبائي..

رائحة نيل الليل تختلف عن رائحة نيل النهار، فهي رائحة عبقة بكل كلمات الحب وقبلات العشاق..

أتعرف أنه الوحيد الذي نجح في خلق الوحدة بين جميع الشعوب العربية من كل الطبقات..

اتفق الجميع عليه..

يسعهم كلهم دونما تفريق بين غني و فقير..

أكثر شيء تألمت لفراقه كان ليل النيل ورائحته..

لا تسألني عن سبب الفراق فهذا أمر قررت عدم مناقشته مع أي أحد ،حتى نفسي..

ولكنك لست كأي أحد..

أنت صديقي ورفيقي الوحيد الذي لا يفارقني أبداً هنا..

تخلى عني الجميع إلا أنت لم تتركني وتمضِ مثلهم، ومع ذلك أنا لا أريد الخوض في أسباب هذا الفراق الآن.

فالآن لندع المسكنات تحرم بعضنا من بعض قليلاً مدة مفعولها.. وإلى أن نلتقي في الصباح دعنا ننم ونحن نشم رائحة النيل وليله..

{٣}

جائت رائحة القهوة بمجيء اليوم الثالث..

فثالث يوم وإن لم يختلف كثيراً عن سابقيه، اللهم إلا من هجماتك الشرسة يا صديقي التي شعرت بها اليوم..

إلا أنه ذكرني برائحة القهوة..

السبب أنت تعرفه.. مكالمة أمي.

فدائماً ما ارتبطت رائحة القهوة برائحة أمي..

فلأنها سورية دمشقية كان طقس القهوة من الطقوس المقدسة في بيتنا الجميل في حي المعادي..

فتربيت على عشق القهوة واحتراف صنعها بجميع مراحلها من تحميص وتحويج وطحن وصنع واحتساء!!

لا تتعجب فحتى احتساء القهوة احتراف ومهارة لا يملكها الجميع، وقد علمتني أمي قواعدها وآدابها.. وكما علمتني أمي طقوس وقواعد وأسرار القهوة، علمني أبي عشق السفر والترحال..

كان أبي سفيراً لمصر في دمشق حينما قابل أمي وعشقها.. شعر وكأنه ملك الدنيا كلها عندما نظر في عينيها العسليتين

الرقيقتين، وقرر على الفور التقدم إلى أهلها لطلب يدها.. وفي غضون شهر كانا يجوبا معاً جميع عواصم العالم. إلى أن حان موعد ميلادي والذي أصر والدي على أن يكون في مصر كي أُولد فوق أرض بلده التي يعشقها.

لأستقر أنا وأمي في بيتنا في حي المعادي الذي سمع أولى صرخاتي وضحكاتي وقصصي وشهرتي وانكساراتي..

كم أوحشني هذا البيت، وكم أوحشتني أمي وقهوتها..

أتعرف يا صديقي لا تصنع القهوةِ من البن والماء والسكر وحسب.. بل تصنع بالحب والمشاعر؛ فقهوة أمي هي تجسيد مادي لمعنى الحنان والحب والأمومة التي حرمت منها طيلة العشرة سنوات، وأخشى أن أُحرم منها إلى الأبد.

ها قد عدنا إلى الحزن من جديد..

لا تنزعج يا صديقي فأنا لم أضّجر منك فلا تهاجمني، فقط ذكرى القهوة أثارت أشجاني..

حسناً لنعد إلى ذكرى رائحتها التي اقتحمتني وتملكتني..

أتعرف أن أبي مات في فنجان قهوة..

كان قد منعه الطبيب من شربها بسبب مشاكل القلب والشرايين التي أصابته، ولكنه لم يستجب لتلك التعليمات..

استمر في الاستمتاع برائحتها حتى اللحظة الأخيرة..

فبينما كان يحتضر في فراش يشبه هذا الفراش في مستشفى القوات المسلحة بالمعادي، طلب من أمي فنجان قهوة دمشقي..

أترى كم كانت رائعة قهوة أمي؟!.

زوج في لحظة الاحتضار يطلب من زوجته بدلاً من الموت في قبلة، طلب منها فنجان قهوة دمشقي..

مازالت تحتفظ أمي بهذا الفنجان حتى الآن..

كانت تخرجه في المناسبات الخاصة بهما فقط..

عيد حبهم، خطبتهم، زواجهم، ميلادي..

وفي كل الأوقات التي خلدت قصة حبهما وتحولت إلى أعياد حب رسمية في قلبيهما..

أمي..

كم أشتاق إليكِ..

كم أشتاق إلى الموت في فنجان قهوة دمشقي من يديكي..

ذكرى رائحة القهوة مازالت متعلقة بأنفي رغم أنبوب الأكسجين الموضوع عليها..

والآن أشعر بالخدر يأخذني منك ياصديقي، عذراً سأتركك قليلاً حتى الصباح ولكنني واثق من استمتاعك بذكرى رائحة قهوة أمي الدمشقية، مثلي تماماً..

{٤}

رغم أن الماء المالح المكون لجميع البحار والمحيطات في كل الأرض واحد، إلا أنه يبقى بحر الإسكندرية وشاطئها بالنسبة إليّ هما أعظم البحار والشواطئ..

ولا أعلم لماذا ارتبطت عندي رائحة يود البحر ورمل الشاطئ المبلل بالطفولة ورائحتها!!

فلو كانت للطفولة رائحة لن تكون -من وجهة نظري- غير رائحة بحر إسكندرية..

عشقت الإسكندرية وبحرها ورمالها، خاصة في الشتاء..

الإسكندرية لا تكون إلا في الشتاء..

وسط المطر والنوّة والصقيع، وأمواج الشاطئ وهي تثور في كبرياء وتقتحم الشارع مع هطول المطر الغزير..

حالة عشقتها طوال عمري..

ووسط كل هذا أسير أنا والدنيا لا تسعني من السعادة ،بينما يملأني الدفء والرغبة في الضحك..

أجري بطول الكورنيش وأنا أضحك، بينما تغمرني مياه المطر ودفقات الشاطئ.

ربما تستطيع الآن يا عزيزي أن تقول دون حرج أن صديقك كان مجنوناً، وأنا لن أدافع عن نفسي، بل على العكس تماماً أنا أقر بذلك..

فإذا كان الفنون جنون، فأعتقد أنني أكثر من يؤمن بتلك المقولة.

آه، كم أوحشتني تلك الأيام..

كنت أذهب وألقي بكل همومي وأحزاني هناك وسط الأمواج المندفعة بينما تغتسل روحي بماء المطر والنوّة..

ومهما كان عليَّ من ضغوط، كنت أعود طفلاً في لحظات..

أضحك بصوت عالٍ وأترك العنان لضحكاتي لتأخذني بعيداً عن أي حزن وألم.

هي رائحة الطفولة والبراءة إذاً ما يملؤني اليوم..

أتعرف بمن تذكرني تلك الرائحة؟؟

بها..

هي تلك الإنسانة الوحيدة التي لم تلوث الدنيا براءتها وطفولتها وبسمتها الصافية الرقيقة.. وهي قصة الحب الوحيدة التي قتلني أنها لم تكتمل.

لماذا تفعل بنا الدنيا كل هذا؟؟!!

لماذا تأخذ منا الأمل وتقتل بداخلنا السعادة كلما شعرنا بقربه أو قربها؟؟!!

أسمع صوت ضحكاتك على هذا الجنون الذي أخذني من قمة السعادة إلى قمة الألم..

ولكنها الحقيقة يا عزيزي.

"أسما" هذا الكائن الملائكي البريء الذي لم يجمعنا القدر مصادفةً كما أنه لم يفرقنا مصادفةً..

القصة التي انكسرت بعدها ولأجلها كانت هي.

لأنها كانت الشخص الوحيد الذي يستحق أن أفعل أي شيء لأجله، ولكن..

كان الفراق هو قدرنا المكتوب الذي كان يجب علينا تحمله والتعامل معه رغم ألمه.

والآن..

الآن أناديها..

أطلبها أنا ودموعي..

أريد أن أموت أمامها، وإلى جوارها، وحولها..

هي.. هي آخر الملائكة والفلاسفة والجميلات والطيبات.. هي.. أعظم الفتيات. يا من علمتني أن الموت أهون كثيراً من الألم، وأن الخوف في الحقيقة لا يكون من الموت ذاته كمجهول، ولكنه خوف من الألم.. تعالي وامسحي دمعي وخففي همي وألمي.. تعالي.. ليتها تأتي يا صديقي ولو لحظة في الحلم، فهي الإنسان الوحيد الذي شعرت جواره بالراحة الخالصة.. الأمان والنقاء والصفاء.. الحب والحكمة والجمال والطيبة و.. وكل شيء.. فقد كانت كل شيء. أتركك يا صديقي مع دموعي التي أصبحت كنوّات طوبة، هذا الشهر الذي شهد مولدي ولحظاتي الأولى.. علّها تستطيع أن ترسم لك صورة آخر ملائكة الأرض..

{٦}

هي الحياة من جديد..

أو لنقل تجربة الحياة بعد معاينة الموت..

ليلتان في العناية المركزة بعدما خنتني يا صديقي وهاجمتني وأنا مستسلم للنوم..

حتى أنت لم تسلم من داء البشر..

ياله من أمر عجيب، حتى المرض يمرض..

حتى المرض يخون ويطعن في الظهر من أعطاه الأمان..

لَمَ لم تكن شجاعاً؟!!

لَمَ لم تهاجمني فارس لفارس، وجهاً لوجه؟!!

حتى أنت خنتني!!

حتى مرضي خانني!!

ولكن لَمَ لم تقضِ عليَّ؟!!

هل أشفقت عليَّ في آخر لحظة؟!! أم أنه الضمير الذي يستيقظ عند البعض في اللحظات الأخيرة؟!! أم هو الخوف يا عزيزي من الوحدة بعدي؟!!

وحدة؟!

أية وحدة؟!

أصدقاؤك بالملايين في جميع أنحاء الكرة الأرضية..

إذاً لماذا لم تقضِ عليَّ؟!!

لا عليك فقد سامحتك، كما سامحت كل من خانني من قبلك..

ليس من ضعف أو خوف، ولكن لأنني لا أملك شيئاً آخر..

لا أملك غير أن أكون أنا ،كما لا تملك أنت إلا أن تكون إياك.

والآن دعنا من العتاب واللوم ولنغلق باب الحديث عن تلك الأيام الأليمة ونبدأ من جديد، ولنجدد عهد صداقتنا من يومنا السادس..

من اليوم نبدأ من جديد.

وكما قلنا دائماً ما يذكرنا الجديد برائحة المطر، ويذكرنا المطر بالجديد..

ولكن..

أتعرف أن جديد اليوم لم يذكرني برائحة المطر..

أتعرف بمَ ذكرني؟؟

ذكرني برائحة أول يوم مدرسة..

لا أعرف سبباً لهذا، علّه القول المأثور حول شواذ كل قاعدة.. وبما أننا وضعنا قاعدة تربط بين رائحة المطر والجديد، فلتكن تلك هي ما شذ عن القاعدة..

والآن تقتحمني رائحة أول يوم مدرسة..

تلك الرائحة التي تمتزج فيها رائحة الرمل المبلل بماء الخرطوم الذي يمسك به فراش المدرسة في صباح هذا اليوم..

رائحة رغم تباعد الزمان بيننا إلا أنها مازالت معي تذكرني بأيام الدراسة التي لا تعوض..

أيام لا يعرف طعمها إلا من تركها ومضى في طريق الحياة المؤلم الشائك..

أجمل شيء في الدنيا هو الطفولة، وأحمد الله أن طفولتي كانت سعيدة بشكل كبير..

رغم كوني الطفل الوحيد لم أكن مدللاً، كنت مثل باقي أقراني..

لا أنكر أنني كنت أملك العديد من اللُعب التي كان يحضرها لي أبي من أي بلد يزوره، ولا أنكر أيضاً أنني طيلة حياتي لم أُضرب من أبي أو أمي..

ولكن خلاف ذلك كنت طفلاً مثل باقي الأطفال..

أتعرف أني كنت مركز قوى طيلة مراحل الدراسة ما قبل الجامعة..

حتى في المرحلة الجامعية أيضاً ولكن بشكل مختلف..

فقد كنت والحمد لله من الطلاب المتفوقين علماً وخلقاً، ولذلك كنت دائماً محل إعجاب وتقدير المدرسين والمدرسات.

كيف أنسى أستاذة فاتن وأستاذة جيهان.. كيف لا أذكر أستاذ خالد وأستاذ أمجد.. أستاذ حسن ومستر أحمد طه.. وكل هيئة تدريس كلية تجارة..

كانت تربطنا علاقة قوية عائلية، استمرت طوال فترة بقائي في مصر.

كنت صغيراً جداً عندما تحملت مسئولية ريادة الفصل في الصف الرابع الابتدائي..

مسئولية لازمتني منذ تلك اللحظة حتى نهاية المرحلة الثانوية..

وكنت أزداد خبرة من عام لآخر في كيفية القيادة، وتحمل المسئولية الكاملة عن أخطاء من هم تحت قيادتي..

أذكر ذات مرة وأنا في الصف الخامس الابتدائي كنت أحاول أنا وصديقي أحمد السيطرة على الفصل حتى تأتي أستاذة جيهان..

والحمد لله فشلنا فشلاً ذريعاً في ذلك..

فقررنا البحث عن أستاذة جيهان في الفصل المجاور.

وبمجرد دخولنا الفصل صدمنا، -ليس من شدة هدوئه والتزام تلاميذه بالصمت عكس فصلنا وتلاميذه- ولكن بسبب أن من كانت تقف على الفصل كانت بنتاً..

أعترف لك الآن بأننا شعرنا بالحقد والضيق من تلك الفتاة في ذلك الوقت، فكيف -من وجهة نظرنا آن ذاك- لفتاة أن تنجح في السيطرة على فصل بالكامل في حين أن رجلين قد فشلا في الأمر نفسه..

فما كان منا إلا محاولة إثارة الشغب والفوضى في هذا الفصل.. فكان الصراخ في وجهنا ومطالبتنا بالخروج من الفصل فوراً حتى لا نهيج الطلبة ونحرضهم على الفوضى ،هو رد الفعل الطبيعي لهذه الفتاة في مواجهة اثنين من المتطفلين..

ولكن في لحظة كانت قد تلقت قلمين ساخنين على وجنتيها منا..

شمال.. يمين..

واحد من أحمد والآخر مني..

صدقني ياعزيزي حتى هذه اللحظة أخجل من نفسي بسبب تلك الفعلة الحمقاء المشينة، وإلى الآن لم أُعدْها قط مع أية فتاة مهما حدث بيننا.. فأنا لا أحترم من يرفع يده على أنثى.. ولكنه كان ما حدث.

المهم صرخت الفتاة وهددت باللجوء إلى الناظر، وفي نفس اللحظة دخلت أستاذة جيهان الفصل لتجدنا نقف أمام تلك الفتاة الباكية المهددة التي حكت لها ما حدث وسط دموعها وصراخها.. فما كان من أستاذة جيهان إلا تهدئتها وطلبت منا الذهاب إلى الفصل الآن حتى تلحق بنا. عدنا إلى الفصل في هدوء وسط بكاء الفتاة ودهشتها من رد فعل أستاذة جيهان — لم تكن تعرف أنني مركز قوى– ليبقى الحدث ذكرى لأيام المدرسة التي لن تعود أو تعوض.

والآن يا صديقي أستسمحك في النوم قليلاً حتى الصباح تاركاً لك ذكرى رائحة أول يوم مدرسة لتذكرك بعهدنا الجديد..

{٧}

يومنا السابع جاء مختلفاً..

اليوم يا عزيزي ظهرت نتائج الفحوصات الأخيرة..

لقد انتشرت يا صديقي وتفوقت على الأدوية..

الآن زاد إعجابي بك، فأنا أحب الأقوياء.

الأطباء هنا أصيبوا بالإحباط بسبب تلك النتائج، حتى أن دكتور شريف أخذ في البكاء.

لماذا يخاف الناس الموت؟؟!!

قد يختلف البعض فى أسباب الموت من الناحية العلمية ولكن هذا الاختلاف لا يفيد فى شيء، فكما يقولون تعددت الأسباب والموت واحد. فما الفرق بين الموت بالسكتة القلبية أو الدماغية أو بالقتل أو.. أو.. أو بك يا عزيزي.. كل هذا لا يفيد سوى المتخصصين الذين يسعون لمعرفة أسباب الموت. ولكن فى النهاية النتيجة واحدة وهى فناء الإنسان أو انتقاله من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة.

ولكن هل نستطيع تعريف الموت؟!

هناك تعريفات كثيرة ولكن التعريف المؤكد هو أن تترك الروح الجسد وترحل عنه إلى حيث يشاء الله لها بعد ذلك. فإذا كانت الروح تعود إلى خالقها ،فلماذا يخاف الناس الموت طالما أنه النهاية الحتمية لكل شيء وطالما أنه عودة إلى الله!!

لقد عايشت الموت وصادقته كثيراً..

واجهته وتحديته مرات عديدة، وانتصرت عليه.. -في الحقيقة أنا لم أنتصر، فقط هي ساعتي التي لم تأتِ بعد- ولكنني دائماً ما كنت أشعر به قريباً، منذ أن رحل أبي وأنا أشعر به قريباً.. كنت أشعر أن الحياة قد انتهت من حولي وأني لن أستطيع أن أكملها بمفردى. وتوقعت أني سأموت من الوحدة، وفعلاً جلست أنتظر الموت يأتي..

ولكنه لم يأتِ!!

وظللت أنتظر..

ولكنه لم يأتِ!!

وفى تلك اللحظة تأكدت أن الإنسان لا يموت بموت عزيز عليه حتى لو كان أبوه أو أمه أو أقرب شخص إلى قلبه. فالموت شيء مقدر على كل شخص ولكن بميعاد.. فلكل شخص ميعاد رحيل فلا يمكن أن يرحل أحد دون ساعته. فالإنسان

منذ اللحظة التي خلق فيها وهو مقدر له كل شيء من عمر، ورزق، ونجاح، وفشل، وسعادة، وتعاسة... إلخ.

لذلك فقد شعرت بأن الموت ليس شراً كما يرى البعض، ولكنه قدر.. أى أنه مرحلة نهائية لكل شيء. مرحلة يجب أن يصل إليها كل شخص فى هذا الكون. لذلك فإن الموت شيء ليس بسيئ ولا قبيح بل مثله مثل يوم ظهور نتيجة الامتحان. فالحياة امتحان طويل يعمل فيه الإنسان ما يحلو له ولكن يوم ظهور النتيجة يحاسب عن كل شيء قد صنعه فى هذا الامتحان. فإن كان قد أحسن فسيجد نتيجة إحسانه وسيثاب عليه. ولكن إن لم يحسن فسيجد أيضاً نتيجة عدم إحسانه.

لذلك يحب المحسن يوم لقاء ربه، مثله مثل من ينتظر نتيجة نجاحه وتفوقه..

كما أن المسيء يخاف هذا اليوم لأنه يعلم نتيجته، مثله مثل من لم يكتب شيئاً فى ورقة الامتحان فإنه يخاف من يوم ظهور النتيجة لأنه يعلم ما قد فعل ويعلم أيضاً نتيجته.

ولهذا صادقتك يا صديقي العزيز..

منذ أن عرفت بوجودك وأنا لم أخفك أو أخف الموت.. بل أنتظره لأنه يوم لقاء الله الرحمن الرحيم. فهو يوم ظهور نتيجة

الامتحان سواء كنت ناجحاً أو عكس ذلك ولكنها في النهاية مجرد نتيجة امتحاني أنا.. أي أنني أنا السبب فيها وليس شخص آخر. وهذا ما يجعلني لا أخاف منها مهما كانت لأنني تعلمت تحمل مسئولية أفعالي وأقوالي وتحمل عواقبهما مهما كانت.. فإذا كنت لم أعترض على مجيئي إلى تلك الدنيا، كيف لي أن أعترض على رحيلي منها؟!!

لا تغضب يا صديقي كلما اقترب الموت الذي سيأخذنا من بعضنا.. أنا أحببتك بالفعل وشعرت بالراحة جوارك، فقد كنت محتاجاً إليكِ منذ زمن.. فقد أتعبتني الحياة ومشاكلها وآلامها. ففى تلك اللحظة يكون الموت مثل الشاطئ الذى يسبح الإنسان من أجل الراحة عليه من عناء السباحة التى استمرت طويلاً ضد التيار.

وصدقني يا عزيزي أصعب شيء هو أن تسبح ضد التيار..

أو بمعنى أدق أن يسبح التيار ضدك!!

أن يحاول الجميع كسرك وتحطيم عظامك، فقط لأنك تفكر بطريقة معتدلة أو مختلفة!!

صدقني عندها يكون البعد حلاً..

فالحوار هنا ما هو إلا حوار الطرشاء..

لن يسمعك أحد، وإن سمع لن يقتنع، وإن اقتنع لن يفهم، وإن فهم لن يفعل شيئاً.

أتعرف ما الذي يشغل بالي منذ أن جئت إلى هنا؟؟

ترى فيمَ يفكر الميت وبمَ يشعر؟؟

أعرف أنه لا يستطيع أحد لم يمت بعد أن يعرف مشاعر الميت أو أفكاره، ولكن دعنا نتخيل سوياً فيمَ يفكر الميت بخلاف الثواب والعقاب..

فلنتخيل مثلاً ونتساءل؛ هل يشعر الميت بمن حوله؟؟

هناك تأكيدات فقهية تقول أن الميت يشعر بكل من حوله ولكنه فقط غير قادر على التعبير عن هذا الشعور.

إذاً ومن منطلق تلك العبارة دعنا نتخيل مشاعري بعد أن تفارقني يا عزيزي وتفارقني روحي معك؛ ترى من سيمشي خلف جنازتي من كل أحبابي وأصحابي وأقاربي؟؟

أتعرف أنني منذ فترة طويلة وأنا يصاحبني هذا السؤال!!

ودائماً ما كنت أجلس إلى مكتبي وأكتب أسماء كل من أعرف، وأضع علامة أمام من سيأتي ومن لن يأتي.. من سيحزن ومن لن يعير الأمر بالاً.

المشكلة أن أسماء الذين أتوقع حزنهم كانت في تناقص مستمر، وهذا كان يحزنني بشدة.

أعرف أن الأمر لن يفيدني بشيء فحزن البشر جميعاً لن يعيدني إلى الحياة من جديد - والتي لا أرغب في العودة إليها- ولكنني أعتقد أنني سأكون سعيداً بهذا الشيء..

عندما تشعر بحب الناس في مثل هذا الوقت يكون أمراً مختلفاً.. فأنت في تلك اللحظة لا تملك لنفسك أو لهم نفعاً ولا ضراً، لذا فمن المؤكد أنه لا مجال لأى نفاق أو مجاملة.

أعتقد أنني سأكون أسعد حالاً من هذا الذي لم يمشِ خلفه أحد ممن كان يحبهم فى حياته وممن كانوا ينافقونه إما بسبب منصب أو سلطة أو مال. من المؤكد أنني سأشعر وقتها بقيمة تلك الحياة التى عشتها والتي نجحت في كسب حب الناس فيها.

أسمع صوت ضحكات تنطلق داخلي.. أعرف أنك تعتقد أنني فقدت عقلي أو ما شابه، ولكن هكذا نحن البشر..

نخوض الحروب ونعلن الثورات ونتحمل كل مصاعب الحياة من أجل كسب حب الناس واحترامهم..

فقط نفعل ما نفعل لكسب معركة الموت..

نهزمه بتخليد أسمائنا في قلوب الناس وذاكرة التاريخ.

هكذا قال محمود درويش..

محمود درويش..

الحقيقة أنا لم أحزن اليوم بسبب نتائج التحاليل، ولا بسبب اقترابي من خط النهاية..

حزني اليوم على محمود درويش..

سبقتني يا سيدي..

رأيت جنازتك فبكيت..

ها هو الموت يا أستاذي يخونك ويطعنك في ظهرك..

لم يكن شجاعاً كما طلبت منه، فها هو يهاجمك عند النبع كما توقعت..

رأيت على الشاشة دمع أمك الذي طالما خفت منه، فكأنه دمع أمي..

أعرف أنها بكتني فيك..

فأمي مثل أمك، مثل باقي الأمهات.

خانك الموت ،ولكنه لم يهزمك.. هزمته أنت..

نعم هزمته، كما هزمه من قبلك كل العظماء..

صدقني يا صديقي العزيز لقد هزم درويش الموت كما هزمه عبد الناصر، وغاندي، وجيفارا، وشاهين، والمسيري من قبل..

فالموت ضعيف وجبان وخائن..

من السهل عليك هزيمته طالما أنك على مبادئك محافظ..

كل قلم حر وفكر مستنير وسيف شريف.. هزم الموت.

هزمته كل الفنون كما قال درويشنا.

والآن يا صديقي، مثل كل الفرسان النبلاء أبارك لك تفوقك في تلك الجولة.. متمسكاً بحق الرد في باقي الجولات – إن كان ما يزال في العمر بقية- فإلى أن نلتقي في جولة الغد لك مني ألف تحية..

{٨}

رائحة الكافور والصفصاف تقتحمني..

الفرح والنشوة هما ما أشعر به مع تلك الرائحة التي جاءت لتطرد من داخلي رائحة الموت.

أتعرف يا صديقي أنني أفتقد تلك الرائحة منذ فترة طويلة؟..

دائماً ما كانت تملؤني بمجرد أن تلمس قدماي تراب قريتنا في الصعيد.. تستقبلني تلك الرائحة لحظة الغروب وهي تمتزج بلون الشفق وصوت الريح الناعمة الباردة..

وتأتيني كلما تذكرت قريتي واشتقت إليها..

قريتي..

مازلت أذكر كل شبر فيها رغم تباعد الزمان بيننا، إلا أنني لم أنس أياً من تفاصيلها وروائحها.. ففي قريتنا العديد من الروائح التي من المؤكد ستزورني عما قريب لنتحدث عنها وأحكي لك ذكرياتي معها.. ولكن اليوم هو ذكرى رائحة الكافور والصفصاف..

كان الأهالي في بلدتنا يداومون على حرق فروع الكافور وورق الصفصاف لطرد الناموس -ورغم ذلك كان الشيء

الوحيد الذي يقدّ مضجعي في تلك البلدة هو صوت الناموس ولسعه.. وكأنه تستهويه هو أيضاً تلك الرائحة- لأجلس طوال الليل أنا والقمر والناموس فوق سطح بيتنا لنستمتع معاً بتلك الرائحة.

"أبي"..

ارتبطت رائحة أبي في ذاكرتي بتلك الرائحة دون أن أجد أي مبرر لذلك الارتباط..

لا أعرف لماذا؟!!

ربما لأنه كان قد وصى بدفنه في مقابر عائلته العريقة في قريته بالصعيد..

وكأنه هو أيضاً كان يعشق تلك الرائحة فطلب أن تصاحبه إلى النهاية!!

ربما..

ولكنه ارتبط عندي بتلك الرائحة.

وقد جاءني صوته ليلة أمس يضحك..

جاء وهو في زيه الكامل بمظهره الأنيق وجسده الرياضي الممشوق وشعره الفضي المصفف بعناية ،كأنه أحد نجوم هوليود الكبار..

جاء بخطواته الثابتة المتمهلة الواثقة كما كان دائماً..

نظر إلى وجهي وضحك، ثم مد إليّ يده وأخذني معه..

مشينا معاً وأنا تملؤني حالة من الفرح والسعادة التي لم أشعر بهما منذ رحل..

فأغمضت عينيّ لتكتمل بداخلي تلك المشاعر..

وبعد فترة توقف ،فتحت عينيّ لأجد قربتنا، وبالتحديد مقابر عائلتنا..

نظرت إلى وجه أبي المشرق الضاحك فوجدته ينظر جهة باب القبر..

ثم أشار إليه بيده وقال جملة واحدة..

واحدة فقط قالها ببساطة وهدوء..

"ما رأيك في هذا المكان الرائع إلى جواري؟".

الغريب في الأمر أنني ابتسمت وجاوبته بكل راحة وتلقائية..

"طالما إلى جوارك فهو رائع مهما كان".

أتعرف؟.

لو حكيت هذا الحلم لأمي ستقتل نفسها حزناً عليّ..

ولكنني كنت في حاجة لأن أحكيه..

وها أنت صرت أقرب إليّ من أمي!!

أعرف أن الموعد قد اقترب بشدة وأن هذا الحلم ما هو إلا رسالة لي بذلك..

ولكنني لا أهتم كثيراً كما تعرف بهذا الأمر، فقط أنا سعيد بهذا الحلم لأنني قابلت أبي وزرت معه قريتنا. علّني أزورها قريباً في أرض الواقع. والآن يا صديقي دعني أنسحب قليلاً لنترك للعلاج الجديد الذي بدأت في أخذه اليوم فرصة للعمل.. وحتى نتقابل أتمنى لك الاستمتاع مثلي برائحة الكافور والصفصاف..

{٩}

لا جديد..

{١٠}

ولا اليوم أيضاً..

{١١}

لم تكن مجرد كلمات إطراء ومديح تلك التي سمعتها اليوم من أحد المرضى العرب الذي يُعالج معي هنا..

أبداً ما كانت مجرد كلمات..

فقد جاءت في وقت تتساقط فيه عزيمتي وتتداعى أمام موجات غضبك وطعنات ألمك.. فكانت بمثابة شعاع نور اخترق ظلمات لحظاتي ليعطيني الأمل.

أتعرف يا عزيزي أن كلماته رفعت من روحي المعنوية إلى أقصى حد، حتى أن طبيبي الإنجليزي تساءل عن معناها ليعرف سبب تلك القوة التي دفعتني لمقاومتك والتغلب عليك في نتيجة تحاليل هذا اليوم.

بالطبع هو لم يصدق أنها مجرد ثناء على كتاباتي وقصائدي ومواقفي المشرفة –على حد قوله– ولكنها كانت الحقيقة.

فقد أعادتني تلك الكلمات إلى رائحة كتبي وأوراقي..

تلك الرائحة التي فارقتني منذ لحظة وصولي إلى هنا، والتي كانت بالنسبة إليّ بمثابة القوة المحركة التي تدفعني لأستمر في طريقي بنفس القوة والثبات برغم كل ما حدث.

رائحة الكتب هي ما تملؤني في تلك الليلة، ولا تسألني يا عزيزي؛ هل للكتب رائحة؟؟!!

لأن الإجابة يعرفها كل عاشق للكتب..

بلى..

للكتب رائحة..

بل لكل كتاب رائحة مختلفة كما لكل كاتب طعم مختلف..

وهي تملؤني الآن..

كم أشتاق إلى مكتبي ومكتبتي، أجلس هناك لساعات دون ملل أو كلل..

أكتب..

أقرأ..

أتأمل..

أو حتى تداهمني الذكريات.

هناك لحظات تأتي لتذكرنا بأننا مازلنا على قيد الحياة..

ومن تلك اللحظات لحظة القراءة والكتابة ورائحتهما..

عندما تكتب، وتعبر، وتصرخ.. تشعر بأنك مازلت حياً..

قادر على قول ما تريد وقتما تريد كيفما تريد.

وهذا ما أفتقده الآن.

سأتركك الآن يا عزيزي مع رائحة كتبي لأعطي لنفسي حق الاحتفال بانتصارها في معركة اليوم، وألقاك غداً إن شاء الله يا صديقي العزيز في جولة جديدة..

{١٢}

مازالت الأيام تمضي بنا يا صديقي ونحن عالقون في الانتظار..

انتظار النهاية، أو علها البداية هي ما ننتظر!!

فقط ننتظر في اللا شيء واللا مكان!!

أتعرف أن للانتظار رائحة؟!!

نعم له رائحة، رائحة شجن وصوت أنين..

صادقت الانتظار منذ الصغر.. رافقني طوال حياتي، لم يضجر مني كما فعلت أنا، و لم يتركني ويمضِ كما حاولت..

فقط كان دائماً معي..

كنت أنتظر عودة أبي طوال الوقت، بينما كنت أنتظر نتيجة امتحاناتي، في حين كان انتظار أيام الأجازات يلازمني طوال مراحل الدراسة..

أنتظر موعد لقاء حبيبي، وأنتظر سماع كلماتها سواء على الهاتف أو على شاطئ النيل..

أنتظر ميعاد صدور رواياتي وكتاباتي، وأنتظر مواعيد ندواتي وحواراتي الصحفية..

أنتظر ميعاد سفري، كما أنتظر ميعاد عودتي..

أنتظر..

وأنتظر..

وأنتظر..

وقد يأتي هذا الذي أنتظره أو لا يأتي، في الحقيقة لم يكن هذا يهمني كثيراً و لم يثني عن الانتظار..

وبقيت في الانتظار إلى أن رافقتني في رحلة الانتظار تلك، التي ننتظر فيها معاً زائراً يتوقع قدومه في أي وقت لينهي أيام الانتظار التي طالت.

والآن ما رأيك في أيامي مع الانتظار؟!!

لا تقل أن الانتظار مجرد سلبية وعدم اكتراث!!

فأنا لم أكن أملك غيره في كل الأحوال..

لم تكن أمامي خيارات أخرى..

فقط هو الانتظار الذي كان ولا يزال هو المتاح لي في تلك المواقف المختلفه، فهل تستطيع أن تخبرني ما الذي أملك فعله أمام الموت غير انتظاره إلى جوارك ها هنا؟؟!!

ما الذي يمكنني فعله حياله وحيالك؟؟!!

أقاوم!!

أهرب!!

أختبئ!!

كلها في الحقيقة صور من صور الانتظار!! فالأمر ليس بيدي حتى آخذ فيه قراراً، فقط هو الانتظار بأي شكل من تلك الأشكال، هو وحده ما لدي من خيارات.

ولذلك كانت رائحة القطارات ومحطاتها هي التي تذكرني بالانتظار..

أتعرف أنني في أحيان كثيرة كنت أنتظر الموت!!

لا تتعجب، فكما أنه هناك من يحيا كي يموت، هناك من يحتاج إلى الموت كي يُبعث من جديد..

دائماً كنت أخاف العجز، وأكرهه..

لم أكن أبداً أتصور نفسي في الثمانين من عمري وأنا أجلس وسط أحفادي وما تبقى من شعري الأبيض يبرز من تحت كوفيتي وطاقيتي الصوف.. -رغم أنني أتمنى الآن أن تحتفظ رأسي ولو بقليل من الشعيرات سواء كانت بيضاء أو غير ذلك؛ إلا أنك لم تعجبك تلك الأمنية فقررت حرماني من

الشعر بكل ألوانه- لم أكن أتخيل منظري هذا لأنني كنت أعرف أنني لن أصل إلى تلك المرحلة..

فمن يحيا حياتي لا يسعه إلا أن يتأكد من قصر عمره ودنو أجله.. فمن هذا الغبي الذي يتوقع أن يعيش طويلاً وهو يتجرع باختياره في كل لحظة من حياته جميع أنواع السم والعذاب!!

أنا لا أندم على هذا فقد كان هذا هو اختياري أنا، وقراري الذي اتخذته بكامل إرادتي، وهو أن أكون إنساناً حراً عاشقاً مفكراً رافضاً لكل أشكال القهر والظلم والكراهية.

لذا كنت أعرف بقصر وقت إقامتي في تلك الدنيا..

ولهذا كنت أحاول أن أسبقها قبل أن تسبقني..

أحاول أن أفعل كل ما أريد وأن أقول كل ما أريد في أسرع وقت ممكن، ولم يكن إتهامي بالعجلة إلا حقيقة هذا سببها.. انتظار الموت القريب.

حاول أن تبحث معي عن حقيقة الانتظار..

حاول أن تراه بصورة حيادية..

صدقني الأمر يستحق ،فحياتنا هي انتظار في انتظار..

ننتظر..

وننتظر..

نحاول أن نسبق الجميع كي نصل أولاً في محاولة خائبة للتغلب على الانتظار والانتصار عليه؛ ولكننا نكتشف بعدها أنه يتحتم علينا بعد الوصول، انتظار النتيجة؛ لنكتشف أننا هربنا من الانتظار إلى الانتظار!!

والآن دعني أتركك يا صديقي المُنتظِر، والمُنتظَر مع رائحة الانتظار..

{١٣}

آآآآآآآآآآآآه..

آآآآآآآآآآآآه..

آآآآآآآآآآآآه..

جاء يومنا الثالث عشر مع بداية تلك الصرخات..

لقد بدأت في التوحش يا صديقي، واكتشف الأطباء مناورتك الصغيرة التي كنت تقوم بها في اليومين الماضيين: (تُصور للجميع أنك انهزمت واستكنت.. وأنت في الحقيقة مازلت تنتشر بنفس السرعة أو حتى أكبر، ولكن بهدوء وصمت).. واليوم كُشفت مخططاتك.

ترى هل تشعر بقدر الألم الذي تسببت لي فيه، في صبيحة هذا اليوم؟!!

ترى هل تعرف أنك في غاية القسوة؟!!

كيف أصف لك هذا الألم الذي سببته لي اليوم؟!!

في لحظة توقعت أنك بدلت عظامي بأصابع ديناميت مثلجة!!

في الأول كان الثلج يقطّعني من الداخل، ويفتت أعصابي شيئاً فشيئاً..

وبعد أن ذاب الثلج جاء ميعاد الانفجار..

شعرت بعظامي تتفجر عظمة وراء عظمة، بكل بطء وهدوء وألم وشراسة..

أنا أصرخ، وأنت تضحك..

أنا أتألم، وأنت تزداد فرحاً وزهواً!!

أخيراً اعترف الأطباء بفشلهم وهزيمتهم أمامك، وذلك بعد استنفاذك لكل أنواع المسكنات والمهدئات والمنومات دون أن تتأثر بأي شيء.

ساعة.. اثنتين.. ثلاث..

أربع ساعات انتهت بإصابتي بالإغماء بعد فشل جهازي العصبي في تحمل المزيد من الألم أو الصراخ..

كنت أعتقد أنها النهاية.. فكما أن الهدوء يسبق أشد العواصف وأقساها.. يتلوها أيضاً نفس الهدوء.

لذا توقعت أن الهدوء الأبدي هو الذي سأجده ينتظرني بعد عاصفة اليوم الشديدة القسوة.

ولكنني عندما أفقت وجدتني مازلت هنا، في نفس الغرفة ونفس السرير ومع نفس الصديق!!

حسناً يا عزيزي ،من الواضح أنها مجرد استراحة أخذتها العاصفة لتعود من جديد أكثر قوة وأشد ألماً. تلك هي فلسفتك إذاً وطريقتك المفضلة!!

حسناً، فإلى أن يأتي غداً سأتركك اليوم من دون رائحة أو ذكرى. فيكفي ما تذكرته اليوم وشاهدته معك من ألم وقسوة، وتكفيك فرحتك وزهوك بانتصارك الساحق في جولة اليوم..

{١٤}

كانت ولا تزل رائحة البرتقال هي أدفأ الروائح وأشدها فتنة.. فرائحة البرتقال هي رائحة الدفء واللّمة.

ففي ليالي الشتاء الباردة لن تجد أفضل من لّمة الأسرة والأحبة أمام نار المدفأة أو شاشة التلفاز، وأمامهم طبق هائل من الفول السوداني وإلى جواره كمية كبيرة من البرتقال..

يبدأ الأكل، وتبدأ الضحكات والحكايات..

ليأتي معهم الدفء والشعور بالراحة والأمان.

"مروان"..

المستشار مروان صديق العمر ورفيق الطريق..

لم يكن يتصور قدر المشاعر التي ستحركها زيارته لي اليوم، وكم فرحت بها تلك الزيارة..

يظل المصري هو المصري مهما سافر أو شاهد أو تعلم.. أبداً أصله الطيب لا يتغير.

جاء اليوم محملاً بالبرتقال، كما هي عادة المصريين عند زيارة المرضى..

في الحقيقة لا أعرف على وجه الدقة سبب ارتباط زيارة المريض بكيس البرتقال -علّه ارتباطه بالمشاعر الدافئة الرقيقة كما أخبرتك منذ قليل- ولكن مجرد زيارته لي اليوم أفرحتني وآلمتني في نفس الوقت!!

لا تتعجب يا صديقي حينما أربط بين الفرحة والألم في شعور واحد، ولكنها الحقيقة.. فعندما تفتقد حب الناس تشعر بالألم، ولكنك تشعر بألم أشد عندما تتأكد من حبهم!!

ففي تلك اللحظة لك أن تتخيل قدر الحزن والألم الذي ستسببه لهم عندما ترحل..

عندها لا تستطيع وصف مشاعرك..

تفرح وتصبح أنانياً..

أم تحزن ليزداد ألمك.

في الحقيقة بقدر ما فرحت بزيارة مروان اليوم بقدر ما تألمت..

ها هو شخص آخر يتألم لأجلي..

رغم محاولاته الجادة في كبح دموعه وإخفائها عني؛ إلا أنني رأيتها تغالبه وتنطلق عندما التقت عينانا.

تحدث معي فشعرت بالأمان..

تذكرنا أيامنا التي كانت، ولحظات الطفولة والأمل..

ذكريات أكثر من أربعين عاماً من الصداقة والأخوة..

هناك أشخاص تكتسبهم ولا يسعك إلا الحفاظ عليهم من تقلبات الزمن، ومهما حدث لا يمكن أن ترد على خاطرك فكرة التخلي عنهم. بالطبع لم يسمح لي بأكل البرتقال لأنه كما قالوا من خارج المستشفى -وهم لا يعرفون أنه من خارج إنجلترا كلها- ولكن مروان فطن لذلك ونجح في تهريب برتقالتين.. لنأكلهما خلسة وترتفع ضحكاتنا. لو جاءت النهاية الآن لن أحزن لذلك، فأنا الآن أشعر بأنني حصلت على كل شيء: الأصدقاء.. حب الناس.. الشهرة.. المال.. ورائحة البرتقال. التي سأتركك معها الآن يا عزيزي ريثما تنقضي سويعات الليل القليلة.. الطويلة..

{١٥}

"جاءت معذبتي في غياهب الغسقِ كأنها الكوكبُ الدريُ في الأفقِ.. فقلتُ: نورتني يا خير زائرةٍ، أما خشيتِ من الحراسِ في الطرقِ؟!.. فجاوبتني ودمعُ العينِ يسبقها: من يركب البحر لا يخشى من الغرقِ".

عندما تأتي فيروز تأتي الرغبة في السعادة والنشوة والأمل..

وعندما تمتزج الكلمات والألحان وتتحول إلى صور وردية ومساحات شاسعة من الفرح والنسيم والنشوة، ثق تماماً من أن فيروز هي التي تشدو بتلك الكلمات والألحان.

حدثتك من قبل عن قصص الحب العديدة التي عشتها والتي لم يقدّر لإحداها أن تأخذ مسار الزواج.. ربما أنا من لم يرغب في ذلك التحول، وربما القصة نفسها لم تكن تملك المقدرة على هذا التحول، وقد تكون لا تستحق من الأساس أن تتحول، ولكن الأكيد في النهاية أن الله لم يُرد هذا التحول..

لا شك أنني عانيت كثيراً بسبب تلك القصص، ولكن في بعض الأحيان أشعر أنني لم أكن أريد من داخلي تحويل مسارها.. فتأثري بفشل القصة وعدم اكتمالها أو عدم تحول مسارها ناحية الزواج كان يختفي بعد قليل، ويتحول كما

أخبرتك من قبل إلى رواية أو قصيدة جديدة.. -إلا واحدة- قصة واحدة فقط دمرتني نهايتها وعدم اكتمالها بكل ما تحمله الكلمة من معاني.

عندما تشعر بالإحباط يملأ حياتك، والخوف من فعل أي شيء - حتى لا تفشل فيه- يسيطر عليك.. عندما تقرر بكل إرادتك -هذا إن كان مازال لديك بعض منها- أن توقف حياتك بالكامل بعد تلك القصة.. هذا ما حدث معي بالضبط.

فبعد "أسما" أخذت الأيام تتوالى وتمضي دونما حساب لها أو شعور بها..

تستطيع القول: أنني خفت من الحياة، فاعتزلتها.

بلا شك أنني لم أكن راضياً عن ذلك الوضع أو عن تلك المشاعر السلبية البشعة؛ حتى أنني كرهت نفسي بسبب فشلي في الخروج من تلك الحالة.. ولكنني أستطيع أن أقسم لك بأنني لم أكن قادراً على الخروج منها..

انكسرت بشدة..

اكتئبت بشدة..

فأسما كانت هي الدنيا وما فيها بالنسبة إليّ..

لذا كرهت الحياة بعد أن فرقتنا.. وخفتها.

استمرت تلك الحالة قرابة الثلاثة أشهر، توقفت فيهم حياتي بشكل كامل ،خاصة أنني كلما حاولت التماسك خلال تلك الفترة كانت تحدث حوادث تعيدني إلى نقطة الصفر..

ففي الأسبوع الثاني كان موت أعز أصدقائي المفاجئ في حادث سيارة والذي أصابني بصدمة كبيرة أعادتني إلى حالة الاكتئاب من جديد لتكمل معي الشهر الأول، والتي نجحت في إخراجي منها أختي وأعز صديقاتي "زهوة".. والتي كانت خير سند وخير معين على الخروج من تلك الحالة وتجاوز تلك الأزمة.. مجرد كلامها معي كان يعطيني الأمل والقوة.. إيمانها القوي الراسخ كان يساعدني ويحفزني.

تستطيع القول بأنها كانت كل من كنت أحتاجهم.

ولكن مع بداية الشهر الثاني بدأت الدنيا في ممارسة هوايتها القديمة في التفريق بين البشر..

وجدت زهوة نفسها عالقة في زيجة فُرضت عليها ولا تستطيع الخلاص منها..

وبعد محاولات منها ومني استمرت طوال أول أسبوعين من الشهر الثاني لإقناع أهلها باستحالة تلك الزيجة ،وبعد العديد من الجلسات التي لم تزدهم إلا عناداً. لم تجد زهوة أمامها إلا اكتشاف أن منتصف الشهر الثاني هو يوم عُرسها.

لأكتشف أنا أنه رغم مرور ثمانين عاماً على رحيل "قاسم أمين" مازال هناك حاجة لعودته من جديد، وكأن تلك الأعوام التي مضت لم تكن تأخذنا إلى الأمام بل كانت تندفع بنا متراجعة إلى الخلف!!

كان انكسار زهوة -رمز القوة والكرامة والكبرياء بالنسبة إليّ- هو انكسار تلك المعاني نفسها التي كانت تمثلها.. لتأخذني حالة الاكتئاب في أحضانها من جديد بقية الشهرين ونصف الذين تلوا انتهاء قصة الحب الوحيدة التي هزمتني.

بعدهم لم يكن أمامي إلا التماسك والتقوّي بالذات لمواجهة تلك الأزمة والخروج منها إلى الحياة من جديد..

ومع أنه لم يكن بالأمر الهين أو البسيط، إلا أنه كان يتحتم عليّ فعله كي أكمل مشوار حياتي الذي كان قد توقف بالفعل طوال هذه المدة.

ساعتها، وساعتها فقط اكتشفت أنني لا أملك في حياتي غير "جمال يوسف العجمي" لذا يتحتم عليّ الحفاظ عليه والوقوف إلى جواره وعدم التخلي عنه ،لأنه هو الوحيد الذي يستحق مني ذلك.

زارتني اليوم أسما..

لا لم يكن هذا مجرد حلم أو رؤية ملأت ليلتي.. فقد كانت هي كل ما أريده من تلك الدنيا القاسية..

فأسما هي أسمى ما في تلك الدنيا.

فإن كانت فيروز هي رائحة الجنة وطعمها، فأسما هي صوت الورد ونعومته.

والآن يا صديقي دعني أتركك مع صوت فيروز ورائحة الجنة التي تصاحب صوتها ومع أسمى وجه يمكن أن تراه، علّهم يشفعون لي عندك لتخفف من هجماتك قليلاً..

{١٦}

الأمل..

رائحة الأمل زارتني في يومي السادس عشر..

وليس هناك خيراً من ورد البنفسج كي تشعر بالأمل.

لا أعرف لماذا البنفسج بالتحديد هو ما عشقت من كل الزهور مع أنهم يسمونه الزهر الحزين.. إلا أنني أعشق تلك الزهور، ورائحتها هي أكثر ما يشعرني بالأمل. بالطبع هذا الأمر ليس بسر ،خاصة للمقربين من أصدقائي -وبالطبع أنت منهم- لذا حينما زارني دكتور شريف اليوم لم يكن يحمل معه فقط زهر البنفسج بل حمل معه أيضاً أمل في علاج جديد. فقد أخبرني عن طبيب مصري عبقري يدعى "دكتور مصطفى السيد" يجري الآن أبحاثاً على تكنولوجيا علاجية جديدة تسمى "النانو ذهب" وهي شيء غاية في العبقرية والبراعة والجمال؛ فقد اكتشف هذا الطبيب العبقري مقدرة تلك المادة على امتصاص الضوء وتحويله إلى طاقة حرارية، بالإضافة إلى قدرتها العجيبة في الإحاطة بالخلايا السرطانية فقط دون غيرها لتتحد معها بكثافة، وبذلك عن طريق تعريض تلك المنطقة المصابة لأنواع معينة من آشعة الليزر تقوم جسيمات النانو ذهب

بدورها بامتصاص تلك الآشعة وتحويلها إلى طاقة تفجر الخلايا السرطانية دون المساس بالخلايا المحيطة.

هذه هي عبقرية المصري.. هذا هو بالفعل حفيد الفراعنة العظام، هذا هو بحق حفيد أصحاب أعظم الحضارات وأعرقها.

أعذرني يا صديقي لتحيزي لابن بلدي الذي نجح في الانتصار عليك، ولا تحزن فهو أمامه على الأقل خمس سنوات حتى يتحول اكتشافه هذا إلى علاج شائع ومستخدم -وبالطبع ستنجح أنت في القضاء عليَّ قبل تلك المدة بكثير- إلا أن أكثر ما يفرحني ويشعرني بالأمل والسعادة هو أنه أخيراً سيأتي الوقت الذي سيتخلص فيه الملايين من عذابهم بسببك..

هذا الوقت الذي تستطيع البشرية أن تفخر برؤيته ومعايشته هكذا هي لحظات الأمل؛ قليلة ولكنها مفصلية.

اشتقت إلى مصر وأهلي وأهلها..

كم هو عظيم ذلك البلد..

أبداً ما انتهت عبقريته أو إبداع أهله..

رغم كل شيء مصر مازالت أم الدنيا..

فالذهب يظل ذهباً سواء كان في أفخم الأماكن أو حتى تحت التراب. هو هو لا تتغير قيمته أو معدنه الطيب الأصيل.

بدأت..

بدأت أشعر بالألم يعاودني من جديد..

آآآه..

يا صديقي لا تتوحش هكذا.. لا تنتقم لأبناء جنسك من ذاك الطبيب العبقري في شخصي أنا..

آآآه..

عظامي..

جسدي..

رأسي..

آآآآآآآه..

لا تقسوا فالقسوة من طبع البشر فلا تتشبه بهم..

الشر والانتقام من صفات البشر مالك أنت بهم..

آآآآآآآآه..

آآآآآآآآآآآآه..

آآآآآآآآآآآآآآآآآآه..

{٢٠}

رغم عني لم يكن متاح لي الشعور بأي شيء طوال الأربعة أيام الماضية، وأنا محتجز رغماً عني وعنك في الغيبوبة الاصطناعية التي أدخلني فيها الأطباء طوال هذه الفترة لمحاولة السيطرة على غضبك وثورتك.

بدأت تتضح الآن معالم النهاية..

فهذه ثورتك الثالثة والتي كانت أكثرهم قسوة..

من الواضح أنك تزيد من قسوتك كلما طال بك الزمن..

علّه الملل أو التسرع هو سبب هذا، ولكن المؤكد هو اقتراب النهاية.

فبالتأكيد سينهار جسدي أمام ثورتك القادمة والتي ستكون بلا شك أقوى من سابقاتها.

ولكن يظل السؤال قائماً هنا وضرورياً؛ ألا وهو: لماذا لم تكن تلك هي القاضية؟!! أمازلت تتلذذ بعذابي وصراخي!! أمازلت تستمتع بدموعي وصيحاتي!!

أنا واثق من أن تلك هي بعض الأسباب، ولكنني أعلم أن هناك سبب أهم بكثير لأنه يتعلق بحياتك أنت ذاتها..

الموت يا عزيزي..

كل الخلائق تخاف الموت..

تخافه لأنه مجهول، والكل يخاف المجهول..

وبما أنك مخلوق فأنت أيضاً تخاف الموت..

فموتي هو في نفس الوقت موتك أنت أيضاً..

لحظة نهايتي هي نفس لحظة نهايتك..

فأنا دنيتك التي كتب الله لك الحياة فيها..

والموت أيضاً سيكون فيها.

لذا فأنت تتمسك بي تمسكك بالحياة.

عجباً.. حتى المرض يخاف الموت!!

رغم أنك تعلم كما يعلم الجميع أن كل مخلوق ميت لا محالة.

ولكنك يا صديقي تخاف كما هو حال باقي المخلوقات.

ولكنني لا أخاف الموت ذاته -على الأقل في هذه اللحظة- إلا أنني أشتاق رمضان ولا أريد الذهاب قبل رؤيته.

لم يتبق عليه أكثر من ثمانية أيام إلا أنني لا أعتقد أنك ستصبر عليَّ طوال تلك المدة.

لذا بمجرد خروجي من غيبوبتي منذ سويعات قليلة اجتاحتني ذكرى رائحة شهر رمضان..

هي حالة تملؤني منذ الصغر ولا أعرف توصيفها أو تفسيرها.

تستطيع القول بأنها خليط من الإيمان والفرح والنشوة المختلطة بالطهر والخشوع.

يأتي رمضان فتأتي البهجة واللّمة والزيارات..

تمتد السهرات حتى الفجر في كل بيت وكل مكان..

الكل سعيد..

الكل يحتفل..

حالة إيمانية غريبة تملأ قلوب الجميع..

تزدان الشوارع والبيوت والجوامع..

تصبح الدنيا كلها نور..

نور على نور..

إلا أن رمضان متعدد الروائح -ولست بصدد التحدث عن ياميش رمضان أو أطعمته وولائمه فأنا أقصد روائح ذكرياته-

فرائحة رمضان الطفولة تختلف عن رمضان المراهقة أو رمضان الشباب ورمضان الكهولة..

فلكل زمن رائحة كما لكل مكان رائحة..

فرمضان في المعادي يختلف عن رمضان في بلدتي والذي يختلف كلية عن رمضان هنا.

تختلف ذكرى روائح رمضان داخلي وتختلط وتتجاذب..

رمضان منذ خمسين عاماً ليس هو منذ أربعين أو ثلاثين أو عشرين أو حتى رمضان الآن.

بداية من أنواع الفوانيس المختلفة وتطورها عبر الزمان والتي لا أعرف مدى العلاقة بين تقدم الزمان وتحول الفوانيس إلى أي شيء آخر غير الفوانيس!!!

فالفانوس هو الفانوس سواء كان مضاءً بالشمع أو الكهرباء -مع أني أعشق فانوس الشمع أكثر- ولكن عندما يتحول الفانوس إلى لعبة مختلفة الأشكال والأصوات هنا لا يكون الفانوس فانوساً.

فما علاقة أشكال الحيوانات المختلفة والعرائس المتعددة بشكل الفانوس!!

ربما يكون الفانوس هو أحد ضحايا العولمة والعالم المتمدن.

فكما حولنا التمدن نحن البشر إلى مجرد أشياء لاتنام إلا بالمنومات ولاتستيقظ إلا بالمنبهات ولاتحيا بين النوم والاستيقاظ بغير المسكنات والمنشطات.. حوّل أيضاً تراثنا الطفولي الجميل إلى مسخ..

مجرد مسخ..

أضحوكة نضحك بها على أنفسنا بعد أن يضحك الآخر علينا بعد نجاحه في تغيير ثقافتنا ومسخها..

صدقني يا عزيزي نحن الجاني قبل أن نكون المجني علينا.. ولكننا في النهاية لا نملك غير الخضوع للنظام العالمي الجديد وإلا صرنا متخلفين -هذا على أساس أننا تقدمنا بعد الخضوع- كما أنني لا أملك الآن غير أن أتركك قليلاً لأغيب بالمنومات من عالم الأحياء إلى عالم الأموات وأراك غداً إن كان ما يزال هناك غداً تاركاً معك رائحة رمضان..

{٢١}

لم أصدق أن هذا هو أسبوعي الرابع هنا.. -رغم أنني لم أتوقف عن عدّ أيام الأسابيع الثلاثة التي انقضت- ورغم ذلك مازلت غير مصدق..

أنا لا أستقل بهم، بل بالعكس أستكثرهم!!

فمنذ دخولي إلى هنا وأنا أعلم -من قبل أن يخبروني بمدى خطورة الحالة- أنني لن أطيل الإقامة.. ليس بهذا المستشفى فقط، بل في الدنيا بأكملها.

ولكن يشاء القدر أن نكمل معاً أسبوعي الثالث، ونبدأ أسبوعي الرابع منذ دقائق مع دقات الثانية عشر ونحن مازلنا معاً.

أنا لم أضق بك ولا يحق لك أن تسيء فهمي بعد كل هذه العِشرة، ولكنني فقط أندهش من سرعة بطء الأيام!!

هناك لحظات تنتابنا فيها فكرة تساؤل فلسفي يظل يلح علينا دون الحصول على إجابة؛ ألا وهو: ترى هل أنا حقيقي أم مزيف؟

لا أعلم إن كان كل الناس يصابون بهذا السؤال العضال، ولكنني أستطيع أن أعترف بأنني أُصاب به في أوقات كثيرة.

أجلس أحياناً وأفكر في إجابته؛ هل أنا حقيقي أم مزيف؟!!

أفكاري، انفعالاتي، مشاعري وكلماتي، لحظات ضعفي وأوقات قوتي، حزني وفرحي.. بكائي وضحكاتي.. كل.. كل لحظات حياتي..

حقيقية أم مزيفة؟!!

لا أعرف متى تأتيني تلك الأفكار ولماذا؟؟ ولكنها تأتي..

تأتي.. وتتملكني حالة غريبة؛ تتحول طريقة تفكيري في نفسي وحياتي وتصرفاتي وأفكاري ومعتقداتي -بالطبع أنا لا أقصد معتقداتي الدينية، حاشا لله- فأجلس وأعيد حساباتي..

وبعد أن تنتهي تلك الحالة يلح عليَّ نفس السؤال ولكن بطريقة مختلفة؛ ترى هل حالتي تلك كانت حقيقية أم مزيفة؟!!

وهكذا كانت أيامي قبلك..

أسئلة تجذب أسئلة تبحث عن أسئلة ،لتجيب بها عن الأسئلة.

الأيام تتوالى والأسئلة تتزايد والحقيقة غابت مع الإجابة.

إلى أن جئت أنت..

جئت فأخبرتني بإجابات كل الأسئلة..

أظهرت أمامي كل الحقائق..

"الموت"..

كان إجابتك الكاملة الشاملة الصادقة..

فقط هو الموت حقيقة الحقائق وإجابة أي سؤال.

الصدق المطلق الذي لا يمكن تزييفه أو إنكارة.

لا تكتئب يا صديقي ولا تعتقد أنني مكتئب..

على العكس تماماً..

فأنا في قمة السعادة..

سعادة من وجد الإجابة الصادقة الشافية.

لا تصدق أنني في قمة السعادة؟!

حسناً هل أخبرك بنكتة حتى تصدق؟

حسناً، في يوم كان هناك شخص يبحث عن الحقيقة.. أخذ يبحث، ويبحث.. يسأل ويفتش.. إلى أن قابل ذات يوم شيخاً عجوزاً أبيض الشعر واللحية.. ثيابه البيضاء تفيض نوراً وتضفي رهبة ووقاراً على هيئته الرائعة البهاء. سأله عن الحقيقة، فصمت الشيخ ولم يُجب.. أعاد عليه السؤال، فأعاد عليه الصمت.. أقسم عليه بأن يُجيبه، فنظر الشيخ في وجهه ملياً

وقال: الحقيقة أنك أضعت خمسين عاماً من عمرك الخمسين باحثاً عن تلك الحقيقة. فَهِم الشخص المعنى، وفَهِم أن هذا الشيخ ما هو إلا ملك الموت الذي ظل يبحث عنه طوال حياته لأنه ببساطة هو الحقيقة الوحيدة في هذا العالم ،والتي لا يجب عليك البحث عنها، لأنها ستجدك حين يأتي موعد إيجادك.. ونهايتك.

لا تعجبك النكتة؟!

تسخر مني وتقول أنك لم تبكِ كما بكيت الآن بسبب نكتتي الحزينة. سأصدقك لأنني لا أملك شيئاً آخر. وسأتركك اليوم وذكرى رائحة الموت تصاحبك علّها تُشعرك بالندم وتزيد بكاءك على صديق قارب على الرحيل.. فإلى يوم آخر إن كان ما يزال هناك آخر..

{٢٢}

كيف لي أن أصف لك رائحة الشوق..

هي ليست كالروائح..

هي شيء يرفض الوصف لأنه يُعجَز عن وصفه..

ولكنه هو الشيء الذي اجتاحني اليوم وما زال..

في الصباح حضر دكتور شريف وأخبرني بضرورة إجراء عملية "زرع نخاع" في أسرع وقت ،وذلك في محاولة جديدة للقضاء عليك، بعد أن نجحت في هزيمة العلاجات الكيميائية والذرية.

في لحظة شعرت بشوقي الشديد إلى العودة إلى مصر..

أريد الموت فوق تراها والدفن تحته في المكان الذي حجزه لي أبي إلى جواره.

حاول دكتور شريف إقناعي بضرورة العملية وأخبرني بنسب نجاحها المحتملة..

ولكنني رفضت.

حاول طمأنتي..

ولكنني أصريت.

حاول تخويفي حين أخبرني بأنني دخلت ثلاث مرات في غيبوبة ،والقادمة ستكون القاضية..

ولكنني لم أخف، بل زاد إصراري على الرفض.

فأنا لا أملك شيئاً آخر..

رفضت وطلبت منه العودة.

رغم أنني أعلم باستحالة تلك العودة حتى بعد موتي، ولكنني طلبتها.

أعتقد أنه من حقي أن أطلب العودة إلى بلدي، بل والسعي إلى العودة بشتى الطرق المشروعة أو حتى غير المشروعة.. فهذا في النهاية حقي لأنها ببساطة بلدي.. وطني.. أرضي.

علّه جاء الوقت الذي يتحتم عليَّ فيه إخبارك بسر النفي الاختياري في ظاهره، الاجباري في جوهره، علّه يكون هذا آخر ما بيننا..

حاولت كثيراً إخفاء هذا السر عن كل البشر.. حتى عن نفسي ذاتها، ولكنك كما أخبرتك من قبل لست ككل البشر، فأنت الأقرب والأصدق.. والأمين الوحيد على أسراري؛ لذا سأخبرك:

كان هذا منذ عشرة سنوات ولكنني أذكره وكأنه بالأمس القريب..

عشرون ضابطاً..وأكثر من مائة عسكري وأمين شرطة.. لم يكن مكتبي الصغير في تلك البناية المطلّة على نيل الزمالك في حاجة إلى كل تلك القوات كي يُهاجَم أو يُحاصَر أو يُفتَّش ويُدمَّر!! كما لم أكن أنا قائداً لتنظيم عسكري أو سياسي حتى تحاصرني كل هذه القوات!! ولكن هذا هو ما حدث..

لم أكن أعرف سبب كل هذا و لم يكن متاحاً لي وقتها حتى المعرفة.. فقط كل ما كان متاحاً خرج في صورة كلمات هادئة واثقة من نفسها من فم العميد الذي كان يقود تلك القوات: "من الأفضل لك التسليم دون أدنى مقاومة حتى لا تدفعنا إلى القيام بفعل جئنا أساساً للقيام به".

ازداد الذهول والتعجب أكثر..

ألجمتني الصدمة وشلّني المنظر..

حاولت النطق ،ولكن خانني لساني كما خانتني الأفكار من قبل.

ولكنني حاولت التماسك وتجميع بعض الحروف الشاردة الهاربة بعضها جوار بعض ليكوّنوا جملة بسيطة: "ممكن أطلب المحامي؟"..

تقريباً كانت الحجرة شديدة الظلام ولا يوجد بها سوى كرسي واحد يحتوي على بقايا جسد بشري مُسلّط على بقايا وجهه كشاف قوي ضخم. اكتشفت بعد فترة أنه مجرد أنا!!

خانتني ذاكرتي، و لم تسعفني أو تساعدني في محاولاتي الكثيرة التي حاولتها لتذكر أحداث تلك الفجوة الزمنية التي فصلت بين نهاية جملتي السابقة وبين اكتشافي بأن تلك البقايا الآدمية تخصني.

حاولت..

وحاولت..

ولكنني فشلت.

بعد وقت لا أعلمه، جاء شخص لم يتح لي سوى سماع صوته.. كان نفس الصوت الهادئ الواثق من نفسه.

ولكنه كان يحمل بين كلماته تلميحات الفرح بالانتصار العظيم الذي حققة في تلك المعركة التي حذرني منها والتي على ما يبدو كانت ما ملأ تلك الفجوة الزمنية.

"فقط كل ما نريد معرفته: لصالح مَن تعمل؟؟ مَن هي الدولة التي تُمولك وتُدربك وتُوجهك؟؟ فقط هذا هو كل ما نريده"..

كانت مشكلتي قبل هذه الجملة هو أن أعرف ماذا حدث ومازال يحدث، ولكن بعدها أصبحت مشكلتي أنني أعرف!!

أعرف أنني جمال يوسف العجمي كاتب وروائي وشاعر في بعض الأحيان.. لم أمتلك في حياتي أي سلاح و لم أمسك بأي شيء سوى القلم.. هناك شيء آخر تذكرته في تلك اللحظة.. أن.. أن والدي على ما أعتقد كان سفيراً لمصر.. نعم، نعم تذكرت، لقد كان من أشد عشاقها ورجالها المخلصين.. نعم.. لقد كرَّمه الزعيم الخالد "جمال عبد الناصر" لنجاحه في توطيد العلاقات بين البلاد التي بُعث إليها وبين مصر.. نعم، خاصة نجاحه في تحسين الأجواء بين مصر وسوريا بعد الانفصال.. حسناً.. وأذكر أيضاً أن أبي كان شديد الفخر بي حتى عند موته، لأنني كما كان يقول كنت أشبهه في كل شيء.. حسناً وبما أنه كان يعشق مصر أعتقد أنني كنت أشبهه في ذلك أيضاً!! إذاً أين المشكلة؟!!

"س.. حضرة الضابط!.. أنا لا أعرف إلى من تُوجه أسئلتك تلك.. علّها الإضاءة القوية التي أعمتني تماماً هي سبب عدم رؤيتي هذا الشخص الذي يلازمني الغرفة وتحدثه.. حتى أنني لا أراني شخصياً.. فاعذرني حسبتك تحدثني أنا".

أتت ضحكاته العالية الصاخبة على حاسة السمع لتلحق بصديقتها حاسة النظر.. ولكنها عادت لحسن الحظ بعد قليل لأتبين بعد ذلك أن تلك الأسئلة كانت توجه إليّ أنا!!

"من الواضح أنك مُدرب بشكل كامل وخطير"..

بعد خمسة أيام وجدت نفسي أمام -أو بشكل أكثر دقة تحت- مكتبي، وإلى جواري خطاب اتضح فيما بعد أنه خطاب اعتذار من وزير الداخلية عن سوء الفهم واللبس الذي حدث نتيجة تشابه في الأسماء، بالإضافة إلى تأكيد شخصي على محاسبة كل من تسبب فيما حدث.

بمجرد أن استطاعت تلك السيقان حملي بعد شهرين من الرقود التام في المستشفى والخضوع لبعض العمليات الجراحية، وجدت نفسي في لندن.

فهل تعتقد يا صديقي أنه كان من الممكن البقاء في مكان شعرت فيه بالإهانة والذل والانكسار، وعوقبت فيه على جريمة لم أرتكبها. شعرت بالرغبة في الصراخ بأعلى صوت والبكاء بشدة.. ولكنني لم أجد القدرة على فِعل ذلك.. ساعتها فقط عرفت أنه لم يعد لي مكان في بلدي.. فهاجرت. هذا كان سرّي الذي لم يعرفه أحد سواك بعد أمي.. أخبرتك به حتى تخبره للعالم أجمع، لو أُتيحت لك الفرصة بعد موتي. أتركك الآن يا صديقي لأنني في أشد الحاجة إلى الموت في هذه اللحظة..

{٢٣}

ربما..

ربما يكن شعوري بالراحة اليوم سببه ما حدثتك به أمس..

فمن الواضح أن ثقافة الاعتراف هي ما ينقصنا نحن العرب حتى نحيا حياة طبيعية مريحة تقل فيها الأمراض النفسية، والتي يتسبب في معظمها الكبت والخوف من المصارحة والاعتراف بالحقائق.

وقد يكون اكتشافي لمخزون ضئيل من الطاقة والعزيمة كان مختبئاً في مكان منسي داخلي هو السبب.

في الصباح جاء دكتور شريف باكياً، وأعاد طلبه ورجاءه من جديد..

لم أكن أستطيع تحمل المزيد من البكاء أو الألم بسبب تألُم الآخرين من أجلي.

لذا طلبت منه شيئاً وعدته بأنه لو حققه لي سأوافق على إجراء تلك العملية..

بالطبع وافق قبل حتى أن يسمع طلبي، ولكنني طلبت منه عدم التعجل قبل سماع الطلب، والذي كان متمثلاً في رغبتي في الخروج للتجول قليلاً في شوارع لندن حتى الوصول إلى حديقة

"الهايد بارك" الشهيرة، والجلوس فيها قليلاً، ثم العودة إلى المستشفى من جديد لأصبح بعدها جاهزاً لإجراء العملية في أي وقت.

بالطبع تحوَّل الفرح الذي كان يملأ وجهه -قبل سماع طلبي- إلى ذهول ما لبث إلا وأصبح رفضاً قاطعاً لمجرد التفكير في مثل هذا الشيء.

بالطبع كنت أعرف مسبقاً أن هذا سيكون هو رد الفعل المنطقي على طلب شخص فقد أكثر من أربعين كيلوجراماً من وزنه في ثلاثة أسابيع، بعدما لم يترك له مرضه القاتل إلا مثلهم.. طلب شخص يستحيل علمياً أن تقوى ساقاه على حمله لدخول الحمام!! شخص معرَّض للدخول في غيبوبة في أي وقت وهو تحت العناية الفائقة!! فكيف يُسمح له بعد كل هذا بمجرد الخروج حتى الغرفة المجاورة بمفرده!!

وهنا ظهرت طاقتي المختبئة..

تمسكت بطلبي وشددت على ربطه بموافقتي على إجراء العملية.

بدأ دكتور شريف في سرد كم المخاطر التي سأعرِّض نفسي لها إذا وافق على هذا الطلب، ولكنني قاطعته بمعرفتي بكل ما يريد قوله ورغم ذلك فأنا مُصرٌّ على الخروج، وبمفردي.

تركني الدكتور وهو يصيح بمَثلنا المصري الشهير: "يموت الزمَّار وصوابعه بتلعب".. ليعود بعد قليل ومعه رئيس القسم المشرف على حالتي ليحاول هو أيضاً إقناعي -عَلّهم لم يعرفوا أنني أملك نصفاً صعيدياً وآخر حلبياً- وعندما تأكد من فشله هو أيضاً، رفع راية التسليم بالأمر الواقع في سبيل إنقاذ حياتي بإجراء عملية زرع النخاع.. لذا قام بالتوقيع على تصريح الخروج صبيحة غد لمدة ساعتين فقط دون مرافق أو مراقب، على وعد مني بالالتزام بالحَيْطة والحذر وعدم التأخر.

والآن أشم رائحة النصر تملؤني..

لقد انتصرت عليك يا صديقي ،حتى ولو قال أطباء العالم كله بعكس ذلك، ولكن موقفي هذا أكد انتصاري عليك على الأقل أمام نفسي.. فرغم كل شيء مازلت أملك رفاهية الحلم والتمسك بحقي في تحقيقه والدفاع عنه. فحلمي هو حقي في الحياة ،والذي لا يحق لأحد أن يحرمني منه. أنا مازلت كما أنا..

الحمد لله.

لأول مرة منذ تعارفنا توافقني الرأي يا صديقي العزيز، بل وتشاركني الفرح بهذا النصر.

أشكرك..

أشكرك وأؤكد لك أني أحببتك كما لم أحب أحداً من قبل.. فهناك علاقات يصعب على الناس فهمها أو تفسيرها، ولكن هذا لا ينفي قوتها وصدقها.. وأعتقد أن علاقتنا من تلك النوعية الفريدة ،ولهذا لك مني ألف تحية ووعد بلقاء غداً أحكي لك فيه آخر الحكايا..

{٢٤}

التاسعة صباحاً

"الـــــحـــــريـــــة"..

لم تكن مجرد كلمة جمعت للصراخ بها كل ما تبقى لدي من طاقة.. ولم تكن مجرد آخر ذكرى لآخر حكاية بيننا.. لقد كانت كل شيء.. تلخص كل شيء وتعني كل شيء وتساوي كل شيء.. البكاء والضحك هما ما أفعلهما الآن بخلاف التمتع بكامل طعم الحرية.. نستنشق الآن معاً هواء لندن المشبع بالندى والضباب في أولى خطواتنا معاً بين شوارعها بعد ثلاثة وعشرين يوماً من الحرمان منه ومنها.. اليوم أتمسك بحقي الكامل في جعله مختلفاً عن كل أيام حياتي.. ومن ضمن هذا الاختلاف ما أفعله الآن من التحدُث معك بصوت مسموع، – بالطبع هنا لا يعني مثل هذا الأمر أي شيء لأي أحد، ولن يلتفت لك أحد ويوجه لك تلك النظرة التي توجه لمن فقد عقله إن كنت تقوم بفعلة التحدُث مع النفس بصوت مسموع في مصر.. وإن حاولت إقناعهم بأنك تُحدّث مرضك، تكون بذلك قد حجزت بنفسك ولنفسك مكاناً دائم الأبدية في مستشفى العباسية للأمراض العقلية.. ولكننا الحمد لله في لندن–. والآن يا صديقي العزيز إلى أين تود الذهاب؟؟ هل

نادي على تاكسي إنجليزي عتيق ونطلب منه الذهاب إلى فندق "تشرشل" حيث كان محل إقامتي طوال مدة وجودي في لندن، لنودع المكان الذي أحببت؟، أم نستقل "باص إنجلترا الأحمر ذو الطابقين" ونتوجه إلى حديقة "هايد بارك" رمز الحرية والديمقراطية في لندن، لنستمتع بنسمات الهواء المشبع بالحرية والندى؟.. أم نتحول في "أوكسفورد ستريت" الشهير لنتفرج على صفوة المجتمع الأوروبي وهم ينسفون آلاف الجنيهات الإسترلينية في سبيل الحصول على الهدايا الثمينة والملابس الباهظة؟؟ ما رأيك يا صديقي؟؟ لك مطلق الحرية في اختيار جدول نزهتنا الأخيرة.. تقول أنك لا تعرف لندن مثلي، ولست خبيراً بمعالمها ومظاهر جمالها وأماكن سحرها.. إذاً تريدني أنا من يحدد طريقة التتره وأماكنه. حسناً يا عزيزي لنتر معاً كل تلك الأماكن ،ولتكن البداية بفندق "تشرشل"، وبعده ننطلق صوب "أوكسفورد ستريت"، لننهي جولتنا بعد ذلك ب "الهايد بارك".. أرى الفرحة تملؤك وتعترف لي بأنها كانت تلك هي رغبتك التي تحرجت من البوح بها.. هل يمكن بعد كل هذه العشرة أن يوجد بيننا حرج؟!! يا عزيزي كلها سويعات وتنتهي حياتنا معاً فهل تظن أنني قد أرفض لك طلباً قد يكون آخر ما بيننا؟! حسناً.. هيا بنا نادي على تاكس... "تاكس! تاكس! تشرشل هوتيل بليز؟ ثانك يو". الآن يا صديقي العزيز

تبدأ رحلتنا.. وسأتركك قليلاً لتستمتع بهواء لندن وجوها الساحر المضبب، حتى نصل لك مني كل الحب..

{٢٤}

أول ثلاثون دقيقة

هذا هو محل إقامتي التي استمرت أكثر من عشرة سنوات.. "فندق تشرشل" بالطبع كلاهما في غنى عن التعريف ولكنني سآخذك الآن صوب غرفتي المتواضعة.. هذه هي.. غرفة رقم "٦٦٦" عرفت مدى عشقي للنساء.. غرفتي تلك انتظرتها ثلاثة أشهر حتى خَلت لأحجزها مدى الحياة، وذلك بسبب رقمها هذا، بالطبع ستقابلك كما ترى بمجرد دخولك تلك الصورة المكبرة "لوالدتي ووالدي".. وإلى جوارهما صورة زعيمنا الخالد "جمال عبد الناصر" وإلى جواره صورة "غاندي" وصورة "جيفارا".. تلك هي عائلتي الصغيرة التي خرجت بها من مصر ومن الدنيا كلها.. بعد عبور تلك الطرقة يستقبلك "الرسبشن" وهو ليس بغرفة استقبال أكثر منه مكتبة ضخمة تضم أكثر من ألفي كتاب بالإضافة إلى مكتب يستقر عليه -بخلاف بعض الكتب- جهاز "اللاب توب" الخاص بي، والذي يضم كل أعمالي. ستجد إلى جوار المكتب كرسياً هزازاً وجهاز "هاي فاي" وإلى جواره الأعمال الكاملة "للسيدة فيروز" و"ياني" و"بيتهوفن" و"تشايكوفسكي" و"موتسارت" والذي سنستمع لرائعته الساحرة "الناي السحري".. نعم هكذا. كما ترى عن

يمينك باب الحمام، وعن يسارك باب غرفة النوم.. دعنا نلقي نظرة.. سريري مازال مبهدلاً كما تركته منذ أربعة وعشرين يوماً عندما هاجمتني بغتة وأنا مستسلم له ولك، ولأنني طلبت منذ لحظة إستئجاري لتلك الغرفة أو "السويت" منع دخول أي عامل أو أحد إليها وأنا من سيتولى أمور النظافة وما شابه ،كانت تلك هي النتيجة.. أشلاء الغرفة مبعثرة في كل مكان نتيجة رد فعلي الجنوني على هجومك القوي المباغت.. عموماً لا يهم سأترك لهم رسالة مغلقة أطلب عدم فتحها إلا بعد وفاتي، وأخبرهم فيها بانتهاء عقدي معهم ومن ثَمّ يتسنى لهم التصرف في تلك الغرفة كما يشاءون بعد أن يسلّموا كل ما يخصني إلى صديقي "مستر مايك جونس" المسئول عن نشر أعمالي هنا وفي كل العالم.. عموماً دعنا نترك تلك الغرفة المقبضة لنعود إلى كرسي القراءة الهزاز لنستمع إلى سحر وعبقرية "موتسارت".. نسيت أن أحضر شيئاً من غرفة النوم، دعنا نحضره قبل أن نذهب. ها هو.. نعم؛ هذه هي حب عمري وقصتي الضائعة.. تلك الصورة هي كل ما تبقى لي منها، وكما كانت معي في كل وقت أريدها معي حتى آخر وقت. والآن هيا بنا يا صديقي فالوقت يداهمنا، ولم يبق معنا أكثر من تسعين دقيقة فدعنا نستغلها حتى آخر لحظة..

{٢٤}

ما تبقى من الساعة الأولى

تتشابه البدايات والنهايات ،الاختلاف الوحيد بينهم هو قدر المعرفة والتجارب التي تجدها معك عند النهاية، والتي لم تكن كذلك مع البداية.. وكما لم تكن تعرف موعد البداية – ولا أحد– لا تعرف موعد النهاية –ولا أحد يستطيع أن يعرف– إلا أن هناك بوادر تخبرك باقتراب النهاية.. –ومن هذه البوادر أصدقاؤك من الأمراض القاتلة يا عزيزي– إلا أنني هنا لا أقصد المرض بالتحديد ،ولكنني أعني الأحاسيس عندما أقول البوادر.. فمن المؤكد يشعر الإنسان بقرب نهايته.. هو شعور مجهول السبب يجتاح الشخص عندما تقترب النهاية.. كالمسافر الذي يقف لا إرادياً ليحضر حقائبه بمجرد اقتراب القطار الذي يستقله من محطة نزوله. وها أنا أحضر حقائب ذكرياتي استعداداً للترول. "أوكسفورد ستريت" هاقد وصلنا محطتنا قبل الأخيرة. أتمنى أن تكون قد استمتعت يا صديقي بباص لندن الأحمر كما استمتعت من قبل بتاكسي إنجلترا العتيق.. والآن ها نحن إذاً في أوكسفورد ستريت.. أشهر شوارع إنجلترا.. الناس هنا كما في باقي أوروبا يفتقدون شيئاً ما لا يستطيع أحد أن يحدده، إلا أنك تشعر تجاههم بنوع من البرود واللامبالاة..

بالطبع الفرق شاسع بين شوارع لندن ،بالتحديد شارع أكسفورد وشوارع مصر، فلا يوجد أدنى أساس للمقارنة بين الاثنين.. إلا أن الفارق المحوري والذي يرجح كفة مصر وشوارعها!! —من وجهة نظري البعيدة عن التحيز- أنه في مصر لو خانتني ساقي وعجز جسدي الهزيل عن حملي أنا وهذا البالطو الثقيل، مما يؤدى إلى سقوطي.. سأجد ألف يد تمتد إليّ بالمساعدة، وألف لسان يبسمل ويحوقل، وألف قلب ينخلع خوفاً وشفقة.. في حين أنه لو حدث ليّ الشيء نفسه الآن هنا لن أجد أي رد فعل اللهم إلا مكالمة قد يجريها أحدهم ليطلب لي الإسعاف، ليتابع بعد ذلك طريقه دون أن يكلف نفسه عبء مجرد النظر إلى وجهي. بالطبع أنت ترى أن التصرف الثاني أكثر عملية وفائدة فماذا سيفيدني التفاف الناس حولي وخوفهم وكلماتهم وقيامهم بتقديم مساعدة قد تضر أكثر مما قد تنفع!! قد أوافقك بعض الرأي، ولكنني سأخبرك بالفرق يا صديقي.. الفرق أنك هنا مجرد شيء توقف عن العمل ،ولم يشعر به إلا شيء آخر طلب له المساعدة.. ولكن في مصر أنت إنسان.. أهم إنسان عند كل الناس.. حتى دون أن تكون شخصية عامة أو تربطك بهم أية علاقة، ولكن يكفي أنك في أزمة وتحتاج إلى المساعدة لتجد كل ما تحتاج وما لا تحتاج ،وهذا هو الفرق. وهذا أيضاً ما سيجعلني أنادي على هذا

التاكسي ليأخذنا إلى محطتنا الأخيرة في جولة اليوم علّ "الهايد بارك" تنجح في الترويح عن نفسي التي زادها "أوكسفورد ستريت" اكتئاباً.. "تاكس! هايد بارك بليز".

{٢٤}

الساعة الأخيرة

وأخيراً عدت لكِ يا معشوقتي ومكاني المفضل في تلك المدينة المضببة.. تمثل لي الهايد بارك أكثر من أنها حديقة خلابة وساحة للحرية.. هي هذا المكان الذي يختلط فيه الحب والثورة ليمتزجا ويخرجا لنا كياناً عاشقاً لكل شيء ثائراً على كل شيء.. في حالة قلما تجدها في أي مكان آخر، وقد تختلف معي أو تتفق يا صديقي ولكن هذا هو ما أشعر به تجاه هذا المكان.. لذا لم أكن أبداً أرغب في أن أصادق الموت بعد أن يستبدلك ،بعدما يهزم كلانا، قبل أن أجلس في هذا المكان الذي عشقته.. وأصارحك القول يا عزيزي أنني لا أبالي الآن بالموت بعدما حقق الله أمنيتي تلك.. رغم أنه ما يزال عندي الكثير من الروائح وذكرياتها والتي أود أن أخبرك بها كلها.. فمن رائحة الخبز، ورائحة الزيتون، ورائحة الصداقة، والفراق، واليأس والإحباط، إلى رائحة الفجر، والموسيقى، والنسيم، والكثير الكثير من الروائح والذكريات التي تحتاج إلى عمر آخر نسترجعها فيه.. والآن ها أنا أجلس معك هنا.. أراها.. أشعر بها.. أتابعها.. وهي تنزل.. دافئة.. ثابتة.. واثقة من نفسها ومتحكمة.. تنزل ومن خلفها يندفع العشرات.. دمعة.. بل

دمعات.. أذرفها ها هنا في هدوء وسكينة.. لا أعرف لها سبباً.. أو لعلني أعرف، ولكنني أرفض الاعتراف بذلك.. تتهادى دموعي، تصاحب كلمات علّها تكون الأخيرة.. ترى، هل هي دموع رثاء؟؟ وداع؟؟ حزن؟؟ أم أنها لحظات النهاية تُسجَّل بالدموع بعدما فشل القلم في تسجيلها؟!! ربما كل هذا.. لا يهم.. فقط.. لا أعرف متى ستتوقف، ولا متى سيترل الستار.. ولكنني أعرف شيئاً واحداً.. أنني.. أنني ضعيف جداً.. ووحيد جداً.. وحزين جداً، جداً.. لا يا صديقي لست أنت سبب كل هذا بل هو أنا السبب في كل شيء.. أنا ولا أحد سواي.. أنا من اختار العذاب والوحدة والضعف.. أنا الجاني والقتيل.. أنا ضعيف.. هش.. لا أقوى حتى على مجرد التفكير في إمكانية تحريك أحد أطرافي.. أنا.. أنا.. لاشيء.. مجرد لاشيء، محتاج إلى كل شيء.. وكل شخص.. محتاج إلى الله.. أحتاج معونته بشدة.. أحتاج قليلاً من القوة لأموت بشرف وشجاعة.. فقط قليلاً من الشجاعة هي كل ما أحتاج إليه في هذه اللحظة ،لأوقف تلك السحات المندفعة من سماء عيني.. فقط أريد النهاية الشجاعة.

{بعد يومين في غرفة العناية المركزة}

غداً يا صديقي لن يجد أحدنا الآخر..

فبعد أن وجدتني سيارة الشرطة فاقداً الوعي على مقعدي في الهايد بارك، وبعدما أعادتنا سيارة الإسعاف إلى هنا لندخل بعدها في غيبوبة استمرت يومين.. كان القرار بإجراء العملية فجر غد ،وبالتحديد بعد ست ساعات بالضبط، وبالتحديد أكثر في الخامسة فجراً سيترك أحدنا الآخر، وللأبد.. وصيتي لك أن تذكرني بالخير إن أُتيح لك ذلك، كما أعدك بالشيء نفسه إن أُتيح لي نفس الشيء.. أرجوك أن تسامحني، فكم أنا في حاجة إلى السماح والغفران في تلك اللحظات أكثر من أي وقت مضى.. أرجوك سامحني وتذكرني..

حكايتي قد تُنشر وقد يؤلف فيها المجلدات، وينسج حولها الأساطير!! قد يُمجِّدني بعضهم في حين قد يُكفِّرني البعض الآخر، بينما قد يكون لا يعرفني أحد من البقية!!

فقط هو أنت الذي يعرف الحقيقة الكاملة عني.. والتي تتلخص في كلمة واحدة "كان إنساناً". بكل ما تحمل الكلمة من سلبيات وإيجابيات، خطايا وحسنات، دموع وضحكات، انتصار وضعف وانكسارات.. أنا هو هذا الإنسان الضعيف

المذنب.. التافه الحقير الذي غرّته الدنيا وكسرته بعدما سلبته أعز ما يملك.. ألا وهي إنسانيته. اذكرني.. واغفر لي.. واحكي كما عرفتني، يا أعز وأقرب وآخر الأصدقاء.

{الخامسة إلا ربع فجراً، في الطريق إلى غرفة التخدير}

-لماذا البكاء يا دكتور؟!! أنا في أحسن حالاتي.

-إن شاء الله ستنجح العملية.. تماسك يا بطل.. ستكون بخير.

-مازلنا نبحث عن الأبطال!! يا دكتور.. لا يوجد في دنيتنا أبطال، لأننا لا نستحق وجودهم بيننا.. البطولة وَهْم.. والعمر دَيْن.. والنهاية كُتِبَت مسبقاً بمجرد أن كتبت البداية. شريف! لا تبكي.. فقط ادعُ الله أن تكون نهاية شُجاعة.

-إن شاء الله ستكون نهاية سعيدة.. يوم خروجك من تلك الغرفة في كامل صحتك هو أسعد نهاية يستحقها إنسان شريف وشجاع مثلك.

-شريف! هل تمطر السماء في الخارج؟

-نعم، ولكن لماذا تسأل؟!

-إذاً مازال هناك أمل في بداية جديدة.

-لا أفهم شيئاً!!

-لا عليك.. قريباً سيحكي لك أحدنا الحكاية.

{أثناء أخذ حقنة المخدر}

-هل تستطيع أن تذكر لنا اسمك كاملاً؟؟

-إنسان.. فقط هو كل ما يهم.. إنسان.

-نعرف ذلك ،ولكننا نريد اسمك كاملاً.

-أهم من اسمي.. أنني.. أن.. أ.........

{بعد عشرة سنوات}

-دكتور شريف! دكتور شريف!.

-نعم.. خيراً يا أستاذ وليد؟

-أريد أن أخبرك بشيء.. أعتقد أنه قد يفيدك في العلاج.

-تفضل.

-لا أعرف في الحقيقة كيف أخبرك به؟؟ ولا إن كان هو حقيقة أو وهماً أو مجرد هلاوس بسبب المرض والأدوية؟؟ ولكنني سأخبرك.. منذ أن جئت إلى هنا منذ ما يقرب من شهر وأنا في كل ليلة.. أشعر وكأن هناك صوت يحدثني.. ليس من خارجي، هو من داخلي.. كل يوم يحدثني ويقص لي حكاية.. أشعر وكأنه حلم.. أسمعه ولا أعرف إن كنت مستيقظاً ساعتها أم غائباً عن الوعي.. ولكنني أسمعه جيداً كل ليلة.. يحكي لي قصة متعلقة برائحة معينة.. وفي كل ليلة تختلف الحكاية.. هو صوت ليس غريباً عني.. من داخلي ينبع ،وبنبرة صوتي يتحدث.. ولكن.. لا أعرف.. ولكنه توقف بعدما أجريت عملية الليزر وشُفيت من السرطان.. لذا أتساءل عن هذا الذي كان يحدث لي.. لا أعرف، حقيقة لا أعرف، دكتور! هل تصدقني؟؟

-بالطبع أصدقك جداً.. ولن تجد أحد غيري يصدقك.

- ولماذا أنت بالتحديد؟؟

- لأنني أنا الوحيد الذي يعرف صاحب تلك القصص التي تسمعها.

- ومن هو؟!!

- هو صديقك المُخلص الذي كان يلازمك هنا.. وتركك ورحل بعد العملية.

- تقصد مَن بصديقي المخلص الذي رحل بعد.. هل تقصد؟؟!!

نعم هو.. هو.. هو أكثر من قابلت في حياتي إخلاصاً.. حفظ العهد الذي أخذه عليه أحدهم منذ عشرة سنوات.. وهو الوحيد الذي يعرف الحقيقة الكاملة.. لذا هو الوحيد القادر على حكيها.. وهذا فقط ما يقوم به مع كل من يصادقه في هذه الغرفة.

أنا لا أفهم أي شيء.. ولكن أشكرك على كل حال يا دكتور.

- لا عليك، لا تأخذ كلامي محمل الجد ،هو فقط ضغط العمل والإجهاد.. المهم حمداً لله على سلامتك.. بعد إذنك.

-تفضل.

{ربما تكن تلك هي النهاية}

